أرشيفو

ARCHIVO

نشرة فصلية مختصة بموضوعات الأرشيف تصدر عن

مـركـــز أوال للـــدراســـــات والتوثيـــق

أرشيفو

ARCHIVO

نشرة فصلية مختصة بموضوعات الأرشيف تصدر عن

مـركـــز أوال للـــدراســـــات والتوثيـــق

العدد 6 -حزيران/ يونيو2017

نشرة فصلية تصدر عن مركز أوال للدراسات والتوثيق، تحت عنوان (أرشيفو) تعنى بقضايا الأرشيف، تنطلق من البحرين إلى الخليج إلى العالم العربي وخارجه.

تغطي النشرة المجالات التالية: المشكلات التي تواجه الأرشيف، طرق حفظ الأرشيف، التعريف بأصحاب الأرشيف الأهلي ومراكز الأرشيف الرسمي، التعريف بالمدونات والمواقع الإلكترونية المهتمة بالوثائق والأرشيف، ترجمة المقالات المنشورة بلغات أجنبية، مراجعة الكتب المتعلقة بالأرشيف ومتابعة الأنشطة والفعاليات ذات العلاقة بالذاكرة والأرشيف.

عنوان النشرة يشير إلى أن كلمة (أرشيف Archives) متقاربة النطق والكتابة والجذر في أغلب لغات العالم، وفي اللغة البرتغالية تنطق هكذا (أرشيفو Arguiv).

رئيس التحرير : د. علي الديري
هيئة التحرير : وسام السبع، آلاء هاشم
سكرتيرة التحرير : نور بكري

مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION

info@awalcentre.com | www.awalcentre.com

awalcentre

الفهرس

1 | الافتتاحية 5
أرشيف الأخ الأكبر 5

2 | أمناء الذاكرة 9
رحلة خليفة مع التأريخ.. 9
جدليات تاريخية بنظرة مغايرة

3 | ديوان الذاكرة 15
منظمة «أمم» للأبحاث والتوثيق 15
ديوان للذّاكرة اللبنانيَّة

4 | ثقافة أرشيفية 25
مؤسسات ذاكرة الوطن: نيوزيلاندا نموذجًا 25
الأرشيف السمعي البصري.. ذاكرة جماعية 34
البيانات الضّخمة إعصارٌ يحتوي العالم 40

5 | وثيقة وحكاية 47
السلاح زمن الإنجليز في الخليج 47

6 | ذاكرة الصورة 53
من يملك ذاكرة الأرض؟ 53
مسارح بيروت من الذّهب إلى اللّحد 57
قصصٌ من «ذاك المكان» 61

7 | كشكول 67
الذاكرة السياسية في مدونات علماء البحرين 67
«لئلا تضيع»: ذاكرة النّاس للناس 74

8 | متابعات 81

الافتتاحية

أرشيف الأخ الأكبر

رئيس التحرير

«أرشيف» لفظة لاتينيَّة مشتقّة من الكلمة اليونانيَّة أرشيوم «archium»، وتعني مكان إقامة القاضي أو المكتب العام أو السّلطة. هكذا، يذكّرنا أصل كلمة أرشيف بالارتباط بالسّلطة، فالقاضي والنيابة العامة أجهزة تابعة للسّلطة، وبهذا تكون هذه الأجهزة بيت الأرشيف والقانون والحقيقة، وهذا ما يجعل الأرشيف مشروع صراع حول الحقيقة، حين لا تكون هذه السلطة ديمقراطية، ولا تخضع لمراقبة المجتمع المدني ومشاركته في صياغة الحقائق العامة، كما هو الأمر في الأنظمة الشمولية ذات الرواية الأحادية غير المؤتمنة على شعبها وتاريخه.

القضايا العامّة في المجتمع الشمولي محكومة بما تسمح به السلطة، ووثائق هذه القضايا تتحكَّم بها السلطة، ويؤول أرشيف هذه الوثائق إلى بيتها (المحاكم، النيابة العامة، المكتبات العامة، الوزارات). وتَعتبر السّلطة تأسيس مشروع أيّ بيت خاصّ للأرشيف خارج بيوت الدولة، خروجًا على الدولة، وتأسيسًا لحقيقة مضادّة لشرعيتها، وتهديدًا لأمنها القومي في احتكار الحقيقة.

في رائعة جورج أورويل «1984»، يقوم بطل الرواية، العضو في الحزب الحاكم، والموظّف في وزارة الحقيقة «بيت أرشيف الأخ الأكبر»، بتكييف التاريخ وفق ما يريده الحزب، فهو يقوم بإعادة كتابة المقالات القديمة، ويعبث بالوثائق التاريخية لتتفق مع ما يعلنه الحزب، كما يتولى محو أيّ إشارة إلى اللاأشخاص، وهم أولئك الذين «تبخّروا»، أي من لم تكتفِ السلطة بقتلهم، وإنما أنكرت وجودهم أصلًا، سواء في التاريخ أو في الذاكرة.

إنَّ تأسيس بيوت خاصَّة للأرشيف يعتبر عملية نضالية في مجتمعاتنا العربية، لأنها ستكون في مواجهة مع وزارات الحقيقة وأرشيف الأخ الأكبر ومهمّاته المقدّسة. وأرشيف مركز «أوال» واحد من هذه البيوت الَّتي تناضل من أجل تحرير الأرشيف من سيطرة الأخ الأكبر.

WAR IS PEACE
FREEDOM IS SLAVERY
IGNORANCE IS STRENGTH
George Orwell
1984

أمناء الذاكرة

رحلة المؤرخ خليفة مع التأريخ والأرشيف.. جدليات تاريخية بنظرة مغايرة

زينب الطحان

ينحدر المؤرخ عصام خليفة من بيتٍ توارث فيه الثقافة أبًا عن جد. جدّ العائلة الخوري يوسف فارس خليفة كان كاهنًا في قرية حدتون الواقعة في جرد البترون، وكان خطّاطًا ينقل الكتب من اللغة السريانيَّة والأرمنيَّة والعربيَّة. يذكر أنَّ والده قال له يومًا إنّه «استهلك 12 رطلًا من الحبر». يبتسم خليفة عند جملته الأخيرة. كان والده، كجدّه، زجالًا، يقتني الكتب ويشترك في المجلات. لا يزال يذكر تلك المكتبة التي كانت تنتصب وسط بيته. يقول الدكتور خليفة إنّه نهل منها، وقرأ الروايات العالمية والشعر العربي والأدب اللبناني فتمكّن من اللغة. ويضيف: «بدأنا قراءة الكتب من الصّف الابتدائي الأول».

رحلة خليفة مع الأرشيف

أبدع في اللغة العربيّة، غير أنّه تولّع بالتاريخ أيضًا، فأحزن قلب أستاذه حين اختار التخصص به. تخرج من الجامعة اللبنانية في العام 1972، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون في فرنسا، بعدما هاجر إليها حين بدأت الحرب الأهلية، وكانت أطروحته تتمحور حول النظام الطائفي والعلمانية من العام 1958 إلى العام 1975. اشتغل بالأرشيف الفرنسي والأرشيفات المحليّة كلها، وجمع كمًّا كبيرًا من الكتب والوثائق، بيد أنّه صبّ اهتمامه فيما بعد على الفتح العثماني، بدءًا من العام 1516، فأصبح لديه حتى اليوم خمسة عشر كتابًا، تعدّ كلّها مراجع علميَّة وبحثيَّة، ليس في لبنان والعالم العربيّ فحسب، بل في أوروبا أيضًا.

أسَّس خليفة مكتبته مذ كان في المرحلة الابتدائيَّة. كان والده آنذاك يعطيه المال (نصف ليرة أو ثلاثة أرباع الليرة)، فيذهب برفقة شقيقه إلى بيروت، وتحديدًا إلى ساحة البرج، ويشتري الكتب «العتيقة» من أمام «الروكس».

اليوم، تحوي مكتبته أكثر من أربعين ألف كتاب، إلى جانب خمسة ملايين وثيقة ومخطوطة تقريبًا، تتمحور موضوعاتها حول تاريخ لبنان القديم والوسيط والحديث والمعاصر، تاريخ سوريا ومصر وأوروبا، الاقتصاد، الجغرافيا، والجيوبوليتيك، ولكنّ الكتب في غالبيتها تعتني بالتاريخ العثماني في القرون الثلاث؛ السادس والسابع والثامن عشر. كما أنَّ مكتبته تحفل بموسوعات عن الأدب والشعر والروايات والفلسفة وعلم الاجتماع والديموغرافيا.

لا يزال إلى اليوم شغوفًا في الحصول على المخطوطات التاريخيَّة. يشتري القديمة منها من أشخاص لا يعرفون قيمتها العلميّة، وتكلّفه أقلّ واحدة منها نحو ألفي دولار، سواء حصل عليها من لبنان أو خارجه. من إسطنبول إلى باريس، كان يحصل عليها أو يصوّرها، وهو يمتلك مئات الآلاف منها على ميكروفيلم، فضلًا عن وثائق كثيرة تدور موضوعاتها حول الأديار والمحاكم الشّرعية والمؤسَّسات التاريخية في لبنان. ومنذ فترة قريبة، حصل على وثائق جديدة. يقول خليفة في هذا المجال: «البحث في ملفّات التأريخ عمل لا ينتهي أبدًا».

يعدّ الدكتور خليفة نفسه من مدرسة جديدة في دراسة التاريخ، أهم عناصرها عدم الاقتصار في الأبحاث على الجانب السياسي والعسكري، بل الاهتمام بالديموغرافيا والحضارة المادية أيضًا. «هذه المسائل لا يهتمون بها في لبنان، فضلًا عن التاريخ الاجتماعي والتربوي والثقافي»، يضيف.

ويتابع شارحًا: «أقوم حاليًا بوضع غرافيك ومنحنيات وجداول حول إحدى الوثائق العثمانيّة، وأعمل على تحليلها وقراءتها ديموغرافيًا. مثلًا، أعدّ الأسماء، وأحلّل تركيبها، هل هي أسماء دينية؟ وما هو هذا الدين؟ هل هو عهد جديد؟ كما أبحث في المهن أو الحرف، وفي أسماء الحيوان.. هذا البحث متعب. عملت أيضًا، على سبيل المثال، في مجال الأوقاف؛ أوقاف مدينة بعلبك وقراها، ودرست ماهيتها، فهناك مثلًا أوقاف للمساجد، وأوقاف تربوية، وأخرى عسكرية لدعم القلاع...».

رحلة طويلة عاشها أستاذ التأريخ عصام خليفة، ولا يزال، مع أرشيف الدولتين الفرنسية والعثمانية تحديدًا. أتقن اللغة العثمانية التي تختلف عن اللغة التركية الحديثة، أي الحرف اللاتيني، ما سمح له بالولوج إلى هذا الأرشيف، فبدأ أبحاثه في الديموغرافيا، التي تعني معرفة البلدات والمناطق، عدد سكانها، أسمائهم، نتاجها الزراعي وغيره. وبعد جهد مضنٍ استمرَّ لسنوات، تمكّن من الانتهاء من كتاب «أطلس لكلّ لبنان».

يقول خليفة: «هذا الأطلس لكلّ لبنان في القرن السادس عشر. ركّزت فيه على إحصاءات عثمانيَّة. كانت الإحصاءات تتمّ من خلال أسماء الرجال الناضجين، والإنتاج، والضّرائب، والوضع الاقتصاديّ. وقد اطلعت على «مهمّة دفتري»، وهي الأحداث السياسيَّة والعسكريَّة والتّنظيمات الإداريّة، وبدأت أبحاثي في هذا المجال».

يقول عن عمله في مجال الديموغرافيا التاريخيَّة، إنّ هذا العلم جديد، ارتكز فيه على الإحصاءات العثمانية، فاستطاع أن يتعرّف إلى المناطق كلها، بما فيها طوائفها، من الشمال إلى الجنوب. ويضيف: «لم يكن للبنان وجود آنذاك. كانت هناك ولايات؛ طرابلس وصيدا ودمشق. هذا التقسيم أوجد خصوصيّة لجبل لبنان، وخصوصًا مع المعنيين، بدأت تتسَّع لاحقًا مع الشهابيين في زمن المتصرفية، حين وُضع البروتوكول، وأصبح هناك اتفاقات دولية منحت لبنان «شخصيّته»».

وينفي خليفة ما يطرحه البعض من اضطهاد المسيحيين في القرن السادس عشر، مشيرًا إلى أنّ وجودهم اتّسع آنذاك، حيث كانوا يتواجدون من الشمال حتى خطّ بكفيا المتن الشمالي... ثم توسّع، ووصل إلى الجنوب، إلى القليعة ورميش، وإلى البقاع الأوسط والشمالي (رأس بعلبك والقاع والفرزل)، ومن ثم توسّعوا جنوبًا، حيث كانت تلك المناطق تشهد حركات ديموغرافية للشيعة.

حصن الحريات في الشرق

ولكنّ المسيحيين، يضيف خليفة، واجهوا مصاعب في القرن السابع والثامن والتاسع عشر في ظل «نظام الالتزام»، فبرز الظلم الاقتصادي والضرائب والاقتتال، ونشأت الإمبراطورية العثمانية. وفي القرن التاسع عشر، بدأ العمل على إشعال الصراعات والفتن الطائفية، وكان واضحًا التدخل الأوروبي والإنكليزي والفرنسي إلى جانب الطوائف في الداخل، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الصراعات الداخلية.

رغم ذلك، فإن لبنان كان حصن الحريات في الشرق في الحقبة العثمانية، إذ كانت أول مطبعة في العالم العربي فيه (مطبعة قزحيا سنة 1587)، إضافة إلى الدور الذي أدّته الإرساليات التبشيرية الغربية، ومبادرتها إلى تأسيس المدارس، التي كانت تباشيرها في روما سنة 1584، حين خرّجت طلائع الموارنة الذين بدأوا يطوّرون الكنيسة، وينقلون الأساليب العلمية والتربوية إلى جبل لبنان، بعدما افتتحوا فيه المدارس. ولا تزال بعض المؤسسات التربوية شاهدة حتى اليوم على تلك الحقبة، من مثل الجامعة الأميركية في بيروت والجامعة اليسوعية، اللتين تنافس فيهما البروتستانت والكاثوليك. وقد زادت مدارس الإرساليات، ودخلت المرأة سلك التعليم. وكانت أول مدرسة تستقبل الإناث هي «المدرسة الوطنيّة» لبطرس البستاني في العام 1834. كما بدأ حضور المجلات والصِّحافة يبرز في القرن التاسع عشر.

ويضيف: «كلّ هذه العوامل جعلت لبنان في طليعة بلدان المنطقة العربية آنذاك. ولم تقف المسألة عند

رحلة طويلة عاشها المؤرخ خليفة، ولا يزال، مع أرشيف الدولتين الفرنسية والعثمانية تحديدًا، كما اشتغل بالأرشيفات المحليّة كلها، وجمع كمًا كبيرًا من الكتب والوثائق، ولا يزال شغوفًا في الحصول على المخطوطات التاريخيَّة.

حدوده، بل ذهبت جماعة النهضة (جرجي زيدان، وأمين الهلال، ويوسف الخازن، وغيرهم كثر)، إلى مصر، حيث شكلوا النهضة العربية. الأمر نفسه حصل مع شيعة جبل عامل، الذين انفتحوا على إيران وأدّوا دورًا في النهضة.. ومع السنّة الَّذين ذهبوا إلى الأزهر، فكان الشيخ رشيد رضا أحد أشهر الأعلام».

هذا الأمر يدلّ، في رأي خليفة، على أنّ أبناء الطوائف في جبل لبنان، كانوا يتعايشون معًا في أجواء من الألفة، ويتشاركون أدوار النهضة، ويمارسون حرياتهم، ويتآخون مع بعضهم البعض. وفي ظل الألفة السائدة، كانت بعض العائلات تعتنق دين البيئة الموجودة فيها، من دون ترهيب أو تعنيف، وكانت تتكيّف مع محيطها الديني والاجتماعي.

من جهةٍ ثانية، كان للإرساليّات التبشيريَّة الغربيَّة دور في لعبة التجاذات الطائفية والفتن في ربوع جبل لبنان. لا ينفي الدكتور خليفة الدور السلبي لتلك الإرسافليات ومدارسها، الَّتي بدأت تنتشر قبل القرن الثامن عشر. يقال إنّها بدأت في إضعاف الدولة العثمانية من خلال إثارة النعرات الطائفية، وهذا هو المنحى السلبي في تواجدها. لم يرسل الغرب إرساليّاته من دون أن تكون مترافقة ومصالحه الاستعمارية والاقتصادية؛ فالفرنسي يبحث في كيفيَّة تأصيل وجوده التّجاريّ، وللإيطالي والإنكليزي والأميركي والروسي مصالحه أيضًا. من هنا، كان تعليم اللغات وما يلحق بها من علوم مختلفة وحديثة جدًا في تلك الحقب التاريخية، ولكن الإمبراطورية العثمانيَّة كانت بعيدة عنها.

يرى خليفة أنّ هذا الأمر طبيعيّ، ويعترف به، ولكنّه يرفض التوقف دومًا عنده، بل يتجاوزه إلى ما هو أبعد من ذلك. ويقصد به التثاقف الغربي – الشرقي الَّذي أسس لنهضة كبرى في جبل لبنان تحديدًا، وجعل من لبنان منارةً للشرق. ويقول: «ترجم أجدادنا تلك الثقافات، وأنشأوا جسرًا تواصليًا ثقافيًا. من هنا، كان التفاعل كبيرًا بين الغرب والشرق».

خصوصية لبنان الجيوبوليتيكيَّة

يرى خليفة أنّ للبنان خصوصيَّته منذ الحقبة العثمانية. ففي مرحلة الإمارة، كان ثمّة نوع من الوراثة، حيث كان آل معن وآل شهاب يلتزمون جمع الضرائب أبًا عن جدّ. ومع ضعف الدولة، تكرَّستحوي اللامركزية. هنا، أصبح الأمير بشير الشهابيّ حاكمًا محليًا يمتلك استقلالًا ذاتيًا، كما أنّ علاقته بالغرب ساعدته على تقوية دينامية المجتمع وثقافته، فنشطت المدارس والصِّحافة والطّباعة. وهنا أيضًا، في رأي خليفة، تكمن عقدة المسألة الشرقيَّة، فإذا كانت سوريا مفتاح آسيا، فإنّ لبنان هو مفتاح سوريا، الَّذي يمكن من خلاله الدخول إلى المنطقة.

ويتابع: «يعرف الغرب أهميَّة لبنان الجيوبوليتيكيَّة. وليس صدفةً أنَّ العثمانيين ضغطوا على لبنان في الحرب العالمية الأولى، من خلال المجاعة، للقضاء عليه، لكي لا تقوم فيه ثورة ضدهم، فشنَّوا حصارًا بريًا عليه، فيما شنّ الغرب حصارًا بحريًا، حتى وقعت المجاعة (إضافةً إلى أسباب أخرى)».

لم يكن ممكنًا للإمبراطورية كلّ ذلك التقدّم، وهي على أبواب فيينا في عهد سليمان القانوني، بعدما صارت تتقهقر، وبخاصة بعد صعود نظام «الالتزام». ولهذا النظام حكاية كبرى يسردها لنا المؤرخ خليفة، إذ يقول إنّ فرسان الدولة كانوا يباشرون بأنفسهم في القرن السادس عشر مهامّ تنظيم المجتمعات. فارس عثماني مثلًا، كان يدير قرية يونين البقاعية، فيجمع الضرائب، وينظّم العسكر فيها خلال الحروب، ويمسك بزمام كلّ الأمور ومجرياتها. وعندما بدأت الإمبراطوريَّة تضعف، أخذت تكلّف أحد أبناء البلدة أو المنطقة، كابن حمادة في الهرمل مثلًا، ليكون

وكيلًا لجمع الضّرائب (كان يجمع مثلًا 400، فيعطي الدولة 100، ويستولي على ما تبقى)، فاشتدّ الظلم على الناس. بالطبع، كان الغرب يدير مصالحه في الإمبراطورية، ويكرّس الضعف، من خلال ربط كل طائفة بكنيسته التي تدعم فرنسا أو أميركا أو روسيا أو إيطاليا. وبذلك، بدأ الحسّ الوطني والارتباط بالهوية العربية والإسلامية يتضاءل، فتمّ ربط الموارنة بروما، وأدخِل السريان ضمن التقاليد اللاتينية، كذلك الأمر مع الروم الكاثوليك وغيرهم، وراح الصراع بين الكنائس والطوائف يتشكّل..

وفي الوقت نفسه، كانت الإمبراطورية العثمانية تمارس ظلمًا من نوع آخر على الناس. وهنا، كان «مضرب تخلّفنا»، فقد بلغ حينٌ من الزمن، كان حاكمُ مصر يجبر كلَّ مسيحيّ على وضع صليب خشبي على رأسه، ليبقى منحنيًا، ثم جاء السلطان سليم وأقدم على الهجوم على الصفويين في كلدران سنة 1514، وعلى بلاد الشام بعد معركة مرج دابق، فأتى على الشيعة والعلوييين معًا، وفُرِض على الناس يومذاك مذهبٌ واحد لا مفر لهم منه، فكان الاضطهاد والقمع كبيرًا، وأُسِّست الملل، وفُرِض نظام الجزية بعد ذلك، وأُجبر الجميع على الرضوخ.

كان هناك الكثير من المسيحيين في سوريا (القلمون حتى دير عطية). يقول المؤرخ خليفة إنّ لديه أسماءهم، ولكنّ ديموغرافية المنطقة بدأت تتغيَّر رويدًا رويدًا، لأسباب عديدة، منها أسباب داخلية. ويروي أن الشخص الذي لم يستطع دفع الجزية، كان يعتنق الإسلام. وفي الآن ذاته، كان هناك استنزاف ديموغرافي للمسلمين في الحروب، إذ أضحى عدد المسيحيين كبيرًا، فيما قلّ عدد المسلمين.

للمؤرخ خليفة مؤلفات عديدة تدور موضوعاتها حول الجيوبوليتيك والسياسة الجغرافية المتعلّقة بالحدود بين الدول.

وكان لهزيمة حرب حزيران في العام 67، أثر كبير في توجيه بعض مسارات البحث التاريخي لديه، فعكف على قراءة تاريخ «إسرائيل» والحركة الصهيونيَّة، وتبيّنت له أطماعها بلبنان منذ ذلك التاريخ، فألّف أحد عشر كتابًا في هذا الموضوع، تمحورت حول الحدود والمياه، وتناولت موضوعين أساسيين؛ لبنان والمنطقة العربية، والحدود اللبنانية – السّورية. وكانت له صولات وجولات في مزارع شبعا، بعد أن كلّفه مجلس الوزراء بدراسة الموضوع، فقدم تقريرًا من ثمانين صفحة، مع زميلين آخرين، استعان فيه بالأرشيف الفرنسي، ليثبت أخيرًا لبنانية المزارع.

زينب الطّحان: أستاذة جامعيّة وكاتبة وصحافيّة لبنانية. تخصّصت في النّقد الأدبي والسّرد الروائيّ، وأعدّت أطروحة دكتوراه حول الهجرة والهوية في رواية "بدايات" لأمين معلوف. صدر لها كتابان عن الأدب ما بعد الكولونيالي.

للتّواصل عبر الإيميل: riza_zein@hotmail.com

بحثاً عن «الضاحية»
LLECTING «DAHIYEH»
معرض صور وليال سينمائية
HIBITION & FILM NIGHTS Opening: Thursday, May 24 @ 6 pm

ديوان الذاكرة

منظّمة «أمم» للأبحاث والتوثيق.. ديوان للذّاكرة اللبنانيَّة

حسن زراقط

يشغّل لقمان سليم حاسوبه النقال. وفي عملية بحث بسيطة، يلج إلى «ديوان الذاكرة اللبنانية». هنا يقع «دليل اللبنانيين إلى السلم والحرب». يخوض في حقل معجمي من مفردات الخطف والقتل والعنف، فتظهر جملة من العناوين تدور جميعها مدار الحرب ومخلفاتها، وتتيح الوصول إلى آلاف المقالات والمعطيات والبيانات التي تستهدف توثيق ظروفها، مقدماتها، بداياتها، نهاياتها، وأشكالها.

«لا نخشى نبش القبور ولا النوم في المقابر. لا شيء يمرّ ويُنسى»، يقول سليم الذي يرأس منظمة «أمم» للأبحاث والتوثيق، المختصة بجمع كلّ ما يتعلق بالذاكرة في لبنان، مثل الحرب الأهلية اللبنانية والمفقودين فيها، وتوثيقه وأرشفته، ومن ثم إتاحته.

أطلقت «أمم» موقع «ديوان الذاكرة اللبنانية» في العام 2008، تزامنًا مع إطلاقها مشروعًا يحمل عنوان «ما العمل؟ لبنان وذاكرته حمالة الحروب»، بهدف توثيق نشاطاتها. حُجبَ الموقع فترة عامين، ثم عاد «بفلسفة معدّلة تجعل منه مشروعًا مفتوحًا على وظائف واستعمالات وآفاق شتى، تتجه جميعًا وجهة واحدة، هي نقد الحرب»، ويجري العمل على تطويره ليصبح اسمه قريبًا «ذاكرة لبنان».

«أمم» نفسها انطلقت كذلك من فكرة قائمة على الحرب. ولدت المنظمة من مشروع فيلم أخرجه سليم وزوجته مونيكا بورغمان (ألمانية الجنسية)، عنوانه «مَقَاتل» (جمع مقتل)، حاولا فيه مقاربة مجزرة صبرا وشاتيلا بشكل مختلف، من خلال استنطاق «القتلة اليدويين لا الآمرين، أي المنفذين».

كان الهدف من الفيلم تسليط الضوء على فكرة العنف الجماعي والفردي، يوضح سليم. وهنا، كان لا بدَّ في أحيان كثيرة من التدقيق في الشَّهادات، ما فتح عينيه على عدم وجود ذاكرة للحرب أو مرفق مفتوح يمكن التوجه إليه للاطلاع على وثائق على علاقة بها، سواء كانت مطبوعات، أو كتبًا، أو صحفًا، فعندما نتحدث عن مرحلة عنف، ينبغي أن نعرف ما سبقها وما تلاها.

خزانة أرشيفية

يقول سليم: «عمليًا، عندما نتحدث عن حرب، فنحن نتحدث عن مقدماتها وخواتيمها. من هنا انطلقت الفكرة». لم يكن الهدف من «أمم» منافسة المؤسسات الأكاديمية أو أجهزة الأمن، بل إنشاء خزانة مواطنية تضم ما تيسَّر من وثائق، وتكون مفتوحة أمام الاستعمال العام.

يعرِّف هذه الخزانة أو الأرشيف على أنه «أرشيف مواطني»، لم يكن الهدف منه إقفال النقاش فيما جرى، بل فتح النقاش حوله، «فلا يحق لأحد أن يصادر الماضي، فهو الذي يصنع الحاضر. ولأننا مواطنون، ولنا حق التدخل في الحاضر، فلنا أيضًا حق التنقيب في الماضي ومحاولة فهم ما جرى. وفي النهاية، لن تكون هناك رواية واحدة، وأي محاولة لفرض رواية واحدة هي مشروع توتاليتاري».

للبحث في التاريخ، يقول سليم، «نحتاج إلى أدوات»، أولها هو «الأرشيف»، أي «المستمسكات، فعندما تكون هناك قضية أمام محكمة، يقولون إن ثمّة ملفًا (للنظر فيه)، ونحن نحاول أن نكون جزءًا من ملف يعنى بتاريخ هذا البلد؛ ولا سيما تاريخه العنفي». يردف سليم قائلًا: «أول الأشياء التي يفكر المرء فيها هو الصحيفة أو الكتاب أو المنشور، مما نسميه «الأدب الرمادي». هذا النوع من المطبوعات والمنشورات التي لا تدخل السوق. فهل سمع أحدٌ ما يومًا بصدور طبعة ثانية من دعوة إلى احتفال حزبي؟».

ما يسميه سليم «الأدب الرمادي» يرى أنه «يساوي صفرًا»، لأنه «ينتج في مناسبة معينة وينتهي مفعوله مع انتهائها». تحاول «أمم» جمع كل المنشورات و«البوسترات» وغيرها، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فهناك ما لا يحتويه كتاب، وهو المخبوء في الصدور والعقول والذاكرة، كما أن العمل الأرشيفي يشمل أيضًا صناعة الوثائق من خلال توثيق شهادات حية.

أولوية حفظ الوثائق

في المرحلة الثانية، يأتي حفظ هذه الوثائق، «فأنْ تجمع من دون أن تحفظ، كأنك تردّد نصف تَشَهُّد». هكذا يشخص سليم أهمية الحفظ، وهو لا يدَّعي أن «أمم» تنتقنه أو تمتلك أدواته، ولكنها تحاول حفظ الذاكرة قدر الإمكان ضمن الإمكانيات المتاحة، نظرًا إلى تكلفة الحفظ المادية. وبعد الحفظ، تبرز حاجة ملحّة، تتمثل باستعادة المواد المحفوظة.

يؤكد سليم أننا نمارس عمل الاسترجاع باستمرار من دون أن نشعر، فعندما نستخدم محركات البحث، نقوم باستعادة ما في ذاكرتها من معلومات في خضمّ هذا «الداتا» أو «الأصول الأرشيفية». هذا العمل يتحول إلى وصف للوثائق.

سعت «أمم» إلى أن تنطلق في صيغة تقربها إلى الناس، انطلاقًا من حرصها على التفاعل معهم، من خلال النشاطات المفتوحة وعروض الأفلام والندوات التي تتناول مواضيع ذات صلة بالماضي والحاضر، وتحديدًا مثلث «الماضي - الحاضر – العنف». إلى جانب ذلك، ولأن العمل يستند إلى «داتا» أو قاعدة بيانات، فقد اتخذ صيغة أخرى منذ العام 2010، من خلال موقع «ديوان الذاكرة اللبنانية»، المعنيّ بقضية المفقودين في لبنان.

يقول سليم في هذا المجال: «نحن نتحدث عن موضوع المفقودين (يوجد في لبنان حوالى 17 ألف مفقود)، من خلال عدد من المؤتمرات

والندوات. هذا العمل قائم على التوثيق. وعندما نتحدَّث عن المفقودين، نربط الموضوع بالمقابر الجماعية الذي عملنا عليه، وأعددنا خريطة قد تكون الأولى من نوعها، وهي مبنية على مصادر مفتوحة عن مكان وجود مقابر جماعية في لبنان».

يتألَّف الموقع، وفقًا لسليم، من حوالى عشرة أقسام تقارب العمل التوثيقي، من خلال عناوين محددة. مثلًا، يوجد فيه أكبر مجموعة مقالات مرتبة موضوعيًا وزمنيًا عن المحكمة العسكرية في لبنان، منذ نشأتها في العام 1920 إلى اليوم. وتقوم «أمم»، جزئيًا، بإعادة تدوير الأرشيف، من خلال المشاريع البحثية التي تقوم بها. وفي النهاية، كل ما تقوم به من عمل بحثي يكون في تصرف الناس، من خلال الموقع الذي يضم حوالى 30 ألف وثيقة، موزعة ضمن حوالى 12 موضوعًا. وفي ظل الإمكانات المتاحة، لم تجرِ مراجعة هذه المواد، غير أن المنظمة ترفق كل وثيقة بكلمة مفتاحية للبحث، وتراجع حاليًا كل ما تم إنجازه وتربطه بكلمات مفتاحية.

كذلك، تعمل «أمم» على إنجاز نسخة معدلة من هذا الموقع، ستصبح متقدمة في غضون شهر على مستوى الإخراج والبحث، وسيصبح شكله أوضح وأكثر ترتيبًا، وسيكون «صديقًا» لوسائل التواصل الاجتماعي، من خلال مشاركة الأخبار والتفاعل معها.

نقطة «التحول»

شهدت «أمم» نقطة تحوّل جعلتها مقصدًا للباحثين. هنا، يتحدَّث سليم عن أمرٍ أساسي جدًا، هو أن المنظَّمة تحاول أن تعتمد أعلى معايير الموضوعية، وتبتعد عن

تجمع «أمم» كلّ ما يتعلَّق بالذاكرة في لبنان، مثل الحرب الأهلية اللبنانيَّة والمفقودين فيها، وتقوم بحفظه وتوثيقه، ومن ثمَّ إتاحته، وتعمل حاليًا على إنجاز مشروع توثيقي عن اللجوء في لبنان في إطاره العام.

خلط مواقفها السياسية في عملها. ويتحدَّث أيضًا عن الشفافية، موضحًا أن «لا محاسبة في الحاضر من دون محاسبة الماضي. الفضل يعرفه ذووه. لقد استطعنا، من خلال بعض الدعم الدنماركي، رقمنة كثير من الوثائق ووضعها في التصرف العام».

لا تعيش «أمم» بعيدًا عن الناس. يشرح سليم فكرته قائلًا: «لدينا إمكانيات للتواصل مع مصادر أرشيفية في لبنان لا يصل إليها الآخرون بسبب جغرافيا الوهم في لبنان، فسكان منطقة الحمراء (قرب وسط بيروت) قد ينتابهم القلق من المجيء إلى الضاحية الجنوبية لبيروت. ولكوننا موجودين في كلّ لبنان، ولا نعيش عقدة الجغرافيا، نستطيع الحصول على مجموعات أرشيفيّة لا يتوقّع البعض أنها موجودة!».

ويستشهد سليم على كلامه بما تمتلكه «أمم» من مواد «استديو بعلبك»، الَّذي كان أول صرح في العالم العربيّ يقدّم أفلامًا بالألوان، وفقًا لصحيفة «الأخبار» اللبنانية. وثمة أمر أساسيّ في المنظّمة، وهو «أن يكون العمل مستمرًا، من خلال الموقع الإلكتروني مثلًا، فلو مررنا بظرف ما، ولم نستطع أن نضيف معلومات جديدة، فما فيه من معلومات يمكن أن يحافظ عليه حيًا، ويستطيع الناس الاستفادة منه لسنوات».

كيف بدأ استعمال التقنية في «أمم»؟ هل بدأ يدويًا ثم تطور؟ يوضح سليم أنّ الدخول في مجال التقنيات، يضع المنظَّمة في منافسة شديدة مع الآخرين. يعترف أحيانًا بوجود أخطاء في العمل، ولكن كان ينبغي إيجاد تقنيات متناسبة مع إمكانياتها.

تطوَّرت تقنية الرقمنة، وكذلك تقنية التصوير في «أمم»، وخصوصًا أن هناك الكثير من الموادّ التي ينصح بتصويرها وليس رقمنتها، من خلال تقنية «scan» أو «المسح الرقمي»، بحسب سليم. كذلك، يوجد نموذج من آلات التصوير يطلق عليها اسم «overhead camera»، وتقوم بمسح رقمي. هذه التقنية مهمَّة، ولكنها غير متوافرة في المنظمة، بسبب كلفتها الكبيرة، ولكنّ هناك مساعي حثيثة لتطوير بنيتها التحتية التكنولوجية.

تطوّر البرنامج الأرشيفي

يشير سليم إلى أن برنامج «ديوان الذاكرة اللبنانية» أنجز «على قياسنا»، فقد حاولت المنظَّمة في البداية شراء برنامج أرشيفيّ متخصّص، ولكنَّها فشلت، ثم بدأت من الصفر.

ومؤخّرًا، حدثت أزمة تسرُّب مياه إلى بعض أجزاء الأرشيف، أحدثت قليلًا من الأضرار التي جرى تداركها. يقول سليم: «اضطررنا إلى أن نُجْلِي جزءًا كبيرًا من أرشيف الصحف والدوريات لترميم الحائط الذي تسربت منه المياه، ولكن رُبَّ ضارة نافعة، إذ طلبنا من الموظفين إجراء إحصاء لكلِّ ما في المنظمة من دوريات وصحف. أحيانًا، قد تصدر إحدى المطبوعات شهريًا ثم تتعثّر، فيكون صدورها لمرتين فقط. جرَّبنا أن نعمل على إعداد برنامج يضمّ كلّ هذه الاحتمالات، بيد أنَّنا فشلنا».

بعد ذلك، عادت «أمم» إلى العمل اليدوي، ولكنه لم يكن يدويًا بالكامل، بتعبير سليم، فكل دورية مرفقة تمتلك بطاقة، مثل صحيفة «السفير». ولدى المنظمة لائحة تحصي كل الأعداد المتوافرة منها، ليبدأ العمل بعدها على تحصيل الأعداد الناقصة.

في العام 1993، يذكر سليم أنّ «السفير» توقفت عن الصّدور باسمها، وصدرت باسم «بيروت المساء»، إذ استعارت اسم الصحيفة التي كانت تابعة لـ«منظمة العمل الشيوعي» آنذاك. هنا، يضاف إلى البرنامج ملاحظة في هذا الشأن، وهذا ما يمكن تسميته «العمل اليدوي والتدقيق».

أحصت «أمم»، من خلال هذه الطريقة، حوالى 300 دورية مختلفة النوع، بعضها صدر لمرة واحدة فقط. والأمر يصبح أصعب مع

الدوريات النادرة التي لا يتوافر تاريخ صدور آخر عدد منها. وقد صدرت خلال الحرب الأهلية في لبنان مطبوعات، بحسب سليم، من مثل مطبوعة «الشياح» (منطقة في ضاحية بيروت الجنوبية)، كانت تُطبع عبر «ستانسل» (تقنية قديمة للطباعة)، وهي نادرة جدًا، ويتوافر منها عددان فقط. أيضًا، كان هناك مطبوعات يصدرها الفلسطينيون في لبنان و«منظمة التحرير الفلسطينية».

يعود سليم إلى مصطلح «الأدب الرماديّ». ففي رأيه، تصبح الأمور أصعب معه. وبالنسبة إلى المطبوعات، يمكن إعداد لائحة خاصَّة بها، والالتفات من خلالها إلى التغيير الطارئ على تواريخ صدورها. ولكن في العمل على المطبوعات المندرجة تحت نوع «الأدب الرمادي»، ينبغي العمل على كلّ وثيقة على حدة.

ولدى المنظّمة أيضًا مطبوعات نادرة، فهي تمتلك مثلًا دليلًا على الاصطياف في لبنان تحت اسم «مرشد المصطاف»، صادرًا في العام 1932، ويحتوي إعلانات لا توجد في مصادر ثانية، كإعلان عن «فندق شكري كامل» في منطقة «سوق الغرب» (منطقة تقع في قضاء عاليه أحد أقضية محافظة جبل لبنان).

أنواع متعدّدة من المحفوظات

لا تقتصر الوثائق الموجودة لدى منظمة «أمم» على المطبوعات والدوريات والصحف، فهناك أنواع أخرى منها، يشرح سليم الحاجة إليها بالقول: «أثناء الانتخابات، يجري توزيع قبعات وقمصان خاصة بالمناسبة، وهو ما يسمى artefact (بالعربية: أثر أو حقيقة أثرية). تعريف الوثيقة باختصار، هي أي شيء يحمل رسالة ما، ومن الممكن أن يكون قبعة تحمل شعارًا ما. نحن نُعنى بالآثار التي يمكن أن تكون شيئًا ذا معنى، أو تحمل رسالة، ويمكن أن يستفاد منها إذا ما وضعت في إطارها الزماني والمكاني».

وفي العام 1991، يروي سليم أنه وجد في إحدى المناطق، إبان فتح الطرقات بعد انتهاء الحرب الأهلية، عمودًا في الطريق، فأحضره واستطاع، من خلال الأدوات الكهربائية، اكتشاف أثر حريق ورصاص فيه من مخلّفات الحرب. هذا العمود لا زال موجودًا في المنظمة، وبحسب سليم، هو شاهد على تلك الحرب.

اؤكّد سليم أنّ الاقتناء جزء أساس من عمل «أمم»، مشيرًا إلى أنَّ الموظّفين يقومون أحيانًا بتجهيز وثائق ليتم حفظها، إذ إنَّ «أول مسؤولية يرتّبها الاقتناء علينا، هي الصّيانة والحفظ اللذان أصبحا علمًا قائمًا، وإرثًا أحيانًا. نحن نحاول قدر الإمكان الحفاظ على الموجودات، لأننا لا نمتلك الإمكانات اللازمة للصيانة مثل التبريد».

كذلك، يهتمّ سليم باقتناء المواد المرئية والمسموعة، ويعتبر أنَّ معالجتها أصعب، لأنها «قد تعالج كيماويًا مما يؤدي إلى تحلّلها، وهذا ما يجعل عمر الورقة أطول. نحاول في «أمم» تطوير طرق الحفظ والاستعانة بأشخاص على دراية بكل الأساليب المفيدة، ولديهم «حيل» لإطالة عمر الوثيقة، إلى حين التمكّن من معالجتها نهائيًا»، يضيف.

مشاريع «أمم» الجديدة متنوعة، فيوجد حاليًا مشروع بحثي وتوثيقي يهدف إلى رفع الوعي بالنسبة «إلى اللجوء في السياق اللبناني، وكيفية تعاطي اللبنانيين معه منذ مرحلة وجود الأرمن بين ظهرانينا؛ هؤلاء الذين صيَّرتهم «معاهدة لوزان» لبنانيين، إضافةً إلى اللجوء الفلسطيني والسوري».

ويقول سليم في سياق الحديث عن المشروع: «نحن نحتاج هنا، ضمن العمل على مفهوم اللجوء، إلى مراجعة ما كان يُقال عن اللجوء في الماضي، وهذا جزء من الوثائق التي نستفيد منها لمصلحة عملنا البحثيّ، وننشرها ليستفيد منها الآخرون في موقعنا الإلكترونيّ تحت عنوان «على الرحب والسعة»، وهو يتحدّث عن اللجوء السوري والفلسطيني. كما ننشر في الموقع كل ما صدر منذ العام 1948 في هذا المجال».

ما الذي يميز «أمم» عن باقي المؤسَّسات المتخصصة بالتوثيق والأرشيف! يجيب سليم: «بكلِّ بساطة، ربما صراحتنا بالقول إنَّ العمل الأرشيفي ليس عملًا خيريًا، بل هو موقفٌ من الحاضر والماضي أيضًا، تحت عنوان «محاسبة الماضي أفضل تمرين لمحاسبة الحاضر»، ولأننا نقوم بدورنا كمواطنين».

حسن زراقط: صحافي لبناني، حاز إجازة في اختصاص الصّحافة، ثمّ نال منحة "إراسموس موندوس" لمتابعة الماجستير في اختصاص العلاقات العامة في بولندا. عمل في عدد من المواقع الإخباريَّة.

للتواصل عبر الإيميل: hasan.zaraket@gmail.com

N° 108
CIB
LES ACTUALITES LIBANAISES

Assader, Mousa
Fadi Toufiq

الانقلاب السوري
بشير العوف

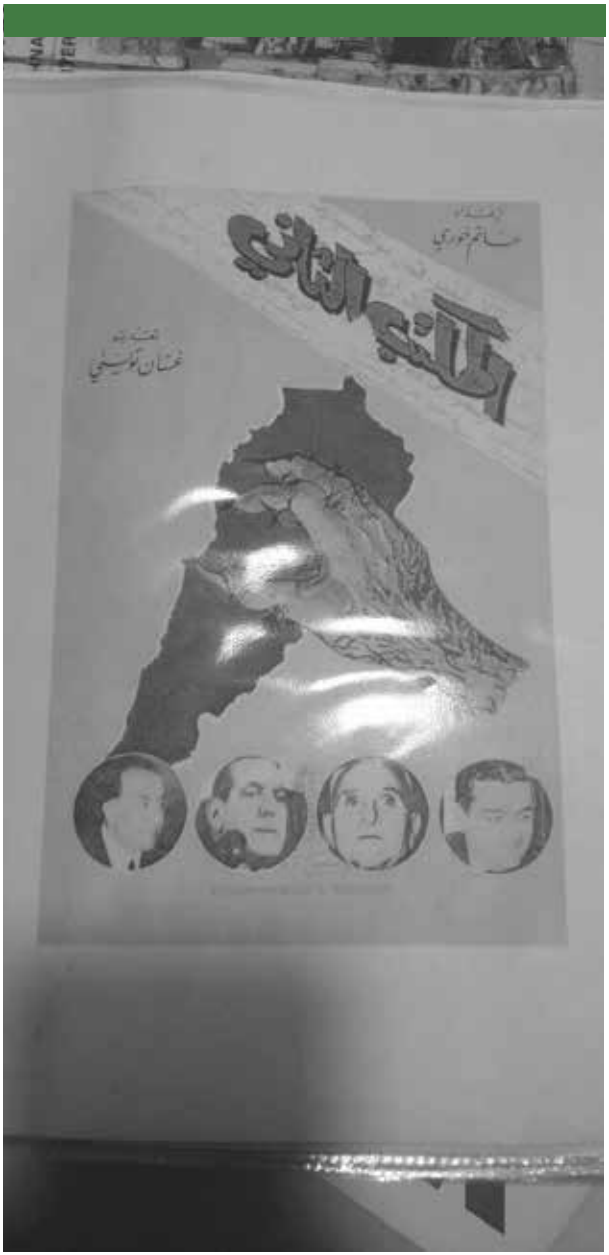
الثاني

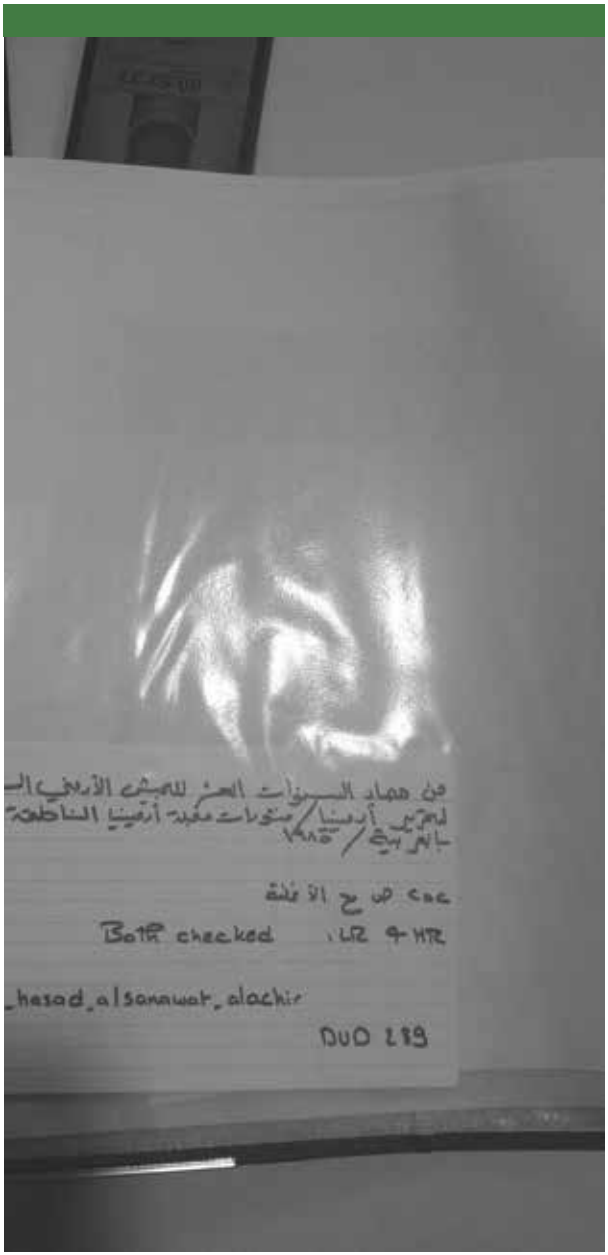

ثقافة أرشيفية

اتّحاد مؤسَّسات ذاكرة الوطن: تجربة نيوزيلاندا نموذجًا

غادة دمشق

يعود تاريخ تأسيس مشروع نيوزيلاندا الرقميّ إلى العام 2008، لكنَّ فكرة التأسيس سبقت ذلك الموعد بسنتين، عندما طُرح على رئاسة مجلس الوزراء في نيوزيلاندا في العام 2006 مشروعان هما: «أونلاين نيوزيلاندا» (New Zealand Online)، و«أسس الإتاحة» (Foundations for Access)، ليتمّ لاحقًا دمجهما تحت عنوان «نيوزيلاندا الرقمية» (Digital New Zealand).

في العام 2007، صار هذا المشروع جزءاً من «استراتيجية المحتوى الرقمي» التابع للحكومة النيوزيلاندية، فعمدت إلى تمويله، وأناطت إدارته والإشراف عليه إلى المكتبة الوطنية النيوزيلاندية، التي احتضنت مقرّ فريق عمل نيوزيلاندا الرقمية. هكذا، وفي العام 2008، تم إطلاق المشروع على الشبكة. انضم إلى هذا المشروع أكثر من 120 مؤسَّسة، من بينها أرشيف لمحطات إذاعيَّة، مكتبات وطنية، مؤسَّسات جامعية، مراكز أبحاث، متاحف وطنية ومتخصصة، معارض فنية، أرشيف صور، وثائق، أفلام وموسيقى. ومن هذه المؤسَّسات، أرشيف المحطة الإذاعية 95 ب. أف. أم.، المكتبة الوطنية النيوزيلاندية، المتحف الوطني لنيوزيلاندا، المكتبة النيوزيلاندية للموسيقى (Audio Culture)، ومؤسَّسات جامعية من نيوزيلاندا.

ورغم أنَّ الجزء الأكبر من هذه المؤسَّسات من داخل نيوزيلاندا، فإننا نلاحظ مشاركة مؤسسات من خارجها، من مثل موقع يوروبيانا، المتحف العسكري الوطني الأسترالي، مركز الأبحاث الأسترالي، باثي نيوز البريطاني (Pathé News)، المكتبة الألمانية الرقمية، المكتبة العامة الرقمية الأميركية (Digital Public Library of America)، وأرشيف الإنترنت (Internet Archive)...

أهداف التعاون

يهدف هذا المشروع إلى تقديم المصادر المختلفة حول نيوزيلاندا، من خلال نافذة بحث واحدة، وهو يعدّ من أوائل نماذج اللام في العالم، إذ يهدف إلى جعل الذاكرة الرقميَّة لنيوزيلاندا متاحة على الشبكة، ليكون من السَّهل الوصول إليها والتفاعل معها (Share) واستخدامها.

يدعم مشروع نيوزيلاندا الرقميّ مشاريع الرقمنة للمواد الجديدة، ويشجّع على الاتجاه نحو المشاع الإبداعي (Creative Commons)، لجعل هذه المصادر متاحة للجميع، ويكون لهم الحريَّة في إعادة استخدام المواد من دون قيد أو شرط. وما قام به مشروع نيوزيلاندا الرقميّ، هو إنشاء موقع «اجعله رقميًا» (Make it Digital) في العام 2009. تم إنشاؤه لدعم عملية الرقمنة في نيوزيلاندا وإدارتها، وخُصِّصَ له ميزانية بلغت حوالى 20 مليون دولار. من مهام «اجعله رقميًا»، إعداد سياسات وأدلَّة لتوجيه المؤسسات نحو عملية الرقمنة، ومن مبادئه الأساسية اختيار المواد التي يجب رقمنتها، ومن ثم تحويلها، وصفها، إدارتها، حفظها، وجعلها متاحة لتسهيل عملية استخدامها.

ومن أبرز ما قام به مشروع نيوزيلاندا الرقمي هو تنظيم مسابقة سُميت «Mix and Mash» لأجل التَّشجيع على الإبداع في إعادة استخدام المواد المرقمنة. هذه المسابقة تقام سنويًا، ويشارك فيها متسابقون من جميع أنحاء العالم. إضافةً إلى ذلك، نظّم المشروع مسابقة أخرى، سميت «GIF it UP»، وهي قائمة على إعادة استخدام الصّور الموجودة في موقع نيوزيلاندا الرقميّ، و«يوروبيانا»؛ المكتبة العامة الرقمية الأميركية. والمطلوب فيها إعادة استخدام الصور الموجودة في هذين الموقعين وتحويلها إلى صورٍ متحركة. أيضًا، تقام هذه المسابقة سنويًا، ويشارك فيها متسابقون من جميع أنحاء العالم.

كذلك، تمّ ضمّ أبحاث نيوزيلاندا (New Zealand Research)، التي تتضمَّن مجموعة ضخمة من الأبحاث الجامعية وأبحاث المؤسسات وأبحاث المعاهد، إلى موقع نيوزيلاندا الرقمي، من أجل دعم عملية الوصول إلى نتائج الأبحاث. إضافةً إلى ذلك، يسمح موقع نيوزيلاندا الرقميّ للمستفيد بجمع مواد بأشكال مختلفة حول موضوعٍ ما، وحفظها في مكانٍ واحد، ويمكن لاحقًا مشاركة ما تم جمعه من خلال مواقع التواصل الاجتماعي. ولدعم مشروع نيوزيلاندا الرقمي، قامت المكتبة الوطنية النيوزيلاندية باقتناء طاولة رقمية (Life Lines Touch Table)، يستطيع المستفيد من خلالها تصفّح جميع المواد التي تمَّت رقمنتها.

أما الأهداف المستقبليَّة للمشروع، فتتمحور حول زيادة عدد المؤسَّسات المشاركة، ليصل إلى حوالى 300 مؤسسة، وزيادة عدد المواد على الموقع ليصل إلى 30 مليون مادة. ويسعى إلى تحسين الميتاداتا التي يتمّ جمعها من مختلف المؤسَّسات، ليس فقط من خلال إضافة رؤوس الموضوعات إلى المواد، وإنما أيضًا من خلال تحسين عمليَّة جمع الميتاداتا وإدارتها، عبر توسيع نطاق المواضيع التي يتم جمعها لتشمل العلوم والبيئة، وجعل المحتوى مفتوحاً ومتاحاً للملكية العامة (Open Content License). كما أنه يهدف دائمًا إلى التنويع في أشكال المحتوى: سمعي، أفلام، ثلاثي الأبعاد، الكتب الرقمية، البيانات والإحصاءات، الخرائط والجرائد.

مجموعة نيوزيلاندا الرقميَّة

الهدف من مشروع نيوزيلاندا الرقميّ هو جمع كلّ ما يتعلَّق بتاريخ نيوزيلاندا وحاضرها من مواد، بأشكالها المتعددة. وحتى الآن، تضمّ مجموعة نيوزيلاندا الرقميَّة حوالى 33 مليون مادة، تم جمعها من أكثر من 120 مؤسَّسة ثقافية، حكومية، تربوية، بحثية، ومؤسسات خاصّة ومدنيّة... (Digital NZ, 2016).

تتضمَّن المجموعة 26.5 مليون مقالة تم جمعها من Papers Past، حوالى 3.7 مليون تسجيلة من المكتبة الوطنية النوزيلاندية، وحوالى 3 مليون تسجيلة من المؤسَّسات المشاركة (Digital NZ write up 2015).

كما تتضمَّن المجموعة أكثر من مليون صورة، أكثر من 150 ألف تسجيلة صوتية ومقابلات، أعمالًا فنية، ملصقات، خرائط، جرائد، قصصات صحافية، دوريات، كتبًا، 316 كيلو من المواد الأرشيفية، موسيقى، أفلامًا، أعمالًا فنية، 214 كيلو من أرشيف محطات إذاعية... تغطّي الحقبات الممتدّة من القرن التاسع عشر حتى القرن الواحد والعشرين.

أما بالنسبة إلى قيود الاستخدام، فتتوزع على الشَّكل الآتي:

- 1.4 مليون تسجيلة، الحقوق محفوظة.
- 1 مليون تسجيلة للمشاركة (Share).
- 860 كيلو من التسجيلات، يمكن التعديل عليها.
- 509 كيلو من التسجيلات، يمكن استخدامها للإعلانات والدعايات.
- 330 كيلو من التسجيلات، غير محدّد.

هذه التَّسجيلات كان معظمها قبل العام 2000، كما أنَّ أغلبها يغطي فترة الحرب العالميَّة الأولى.

يهدف مشروع نيوزيلاندا الرقميّ إلى جعل الذاكرة الرقميَّة لنيوزيلاندا متاحة على الشبكة، ليكون من السَّهل الوصول إليها والتفاعل معها واستخدامها، وهو من أوائل نماذج قطاع اللام في العالم.

عملية جمع التَّسجيلات

تتمّ عمليَّة جمع الميتاداتا من خلال نظام سوبليه جاك لجمع الميتاداتا (Supplejack metadata harvesting system). هذا النظام يقوم بمطابقة البيانات بمخطط (Schema) مبنيّ على أسس «دابلين كور». بعدها، تصبح هذه البيانات متاحة في الموقع، من خلال واجهة برمجة التطبيقات التابع للمشروع (Digital NZ API).

إنَّ سوبليه جاك (Supplejack)، هي أداة أنشأتها كلٌّ من نيوزيلاندا الرقمية والمكتبة الوطنية النيوزيلاندية للجمع والبحث وتبادل تسجيلات الميتاداتا. يُستخدم سوبليه جاك لجمع الملايين من الميتاداتا من مختلف المصادر ومختلف نماذج البيانات، مثل HTML, XML, RDF وغيرها من النماذج. هذه البيانات على اختلافها، انضوت ضمن فهرس بحث موحّد، بحيث تسمح للميتاداتا بأن تكون متاحة من خلال خدمة واجهة برمجة التطبيقات المفتوحة (Open API).

هكذا، مهما كانت معايير البيانات المتّبعة من قبل المؤسَّسات المشاركة وقواعد وصفها، فهي لا تعد مشكلة أمام عمليَّة جمع التسجيلات والميتاداتا. وبالتالي، فإن أداة سوبليه جاك وفّرت على نيوزيلاندا الرقمية عملاً شاقاً في توحيد معايير وصف البيانات. وبات هذا المشروع أفضل أسلوب لتقديم المساعدة لبعض المؤسَّسات المشاركة في عملية وصف الميتاداتا للمواد التي تقتنيها، ما يسهل عليهم لاحقًا عملية جمع المواد وفرزها.

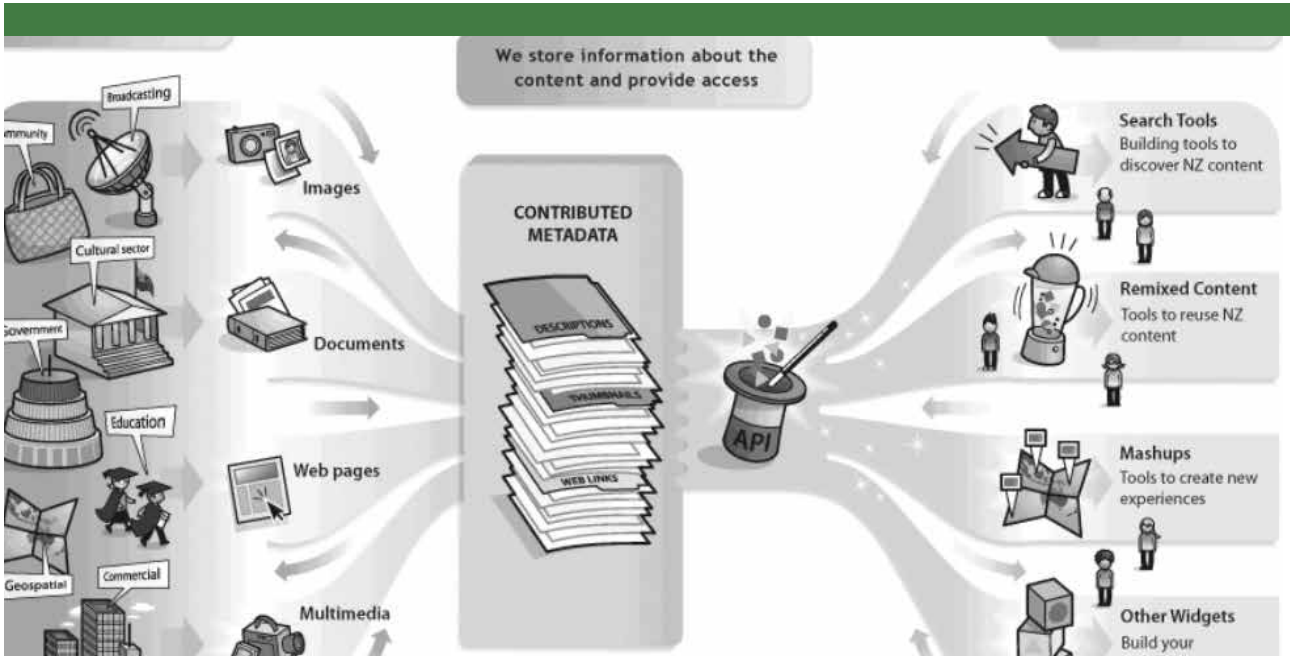

رسم توضيحي (1): طريقة عمل نيوزيلاندا الرقمية

عملية البحث في موقع نيوزيلاندا الرقمي

تتمّ عملية البحث في موقع نيوزيلاندا الرقميّ من خلال نافذة بحث واحدة:

رسم توضيحي (2)

بعد إدخال مصطلح البحث، تظهر النتائج كالآتي: جميع النتائج، بحيث يمكن تصفّح جميع المواد بأشكالها المختلفة، أو البحث بحسب نوع المادة فقط، مثل البحث في نتائج الصّور فقط، أو المصادر السّمعية فقط، أو المصادر السمعية والبصرية، كالأفلام فقط... كما يمكن رؤية ما تمّ جمعه من خلال المستفيدين حول موضوع البحث في خانة المجموعة (Set)، إضافةً إلى تصفّح الجرائد، المقالات، الكتب، المواد الأرشيفية، الدراسات، والمخطوطات... كلّ واحدة على حدة.

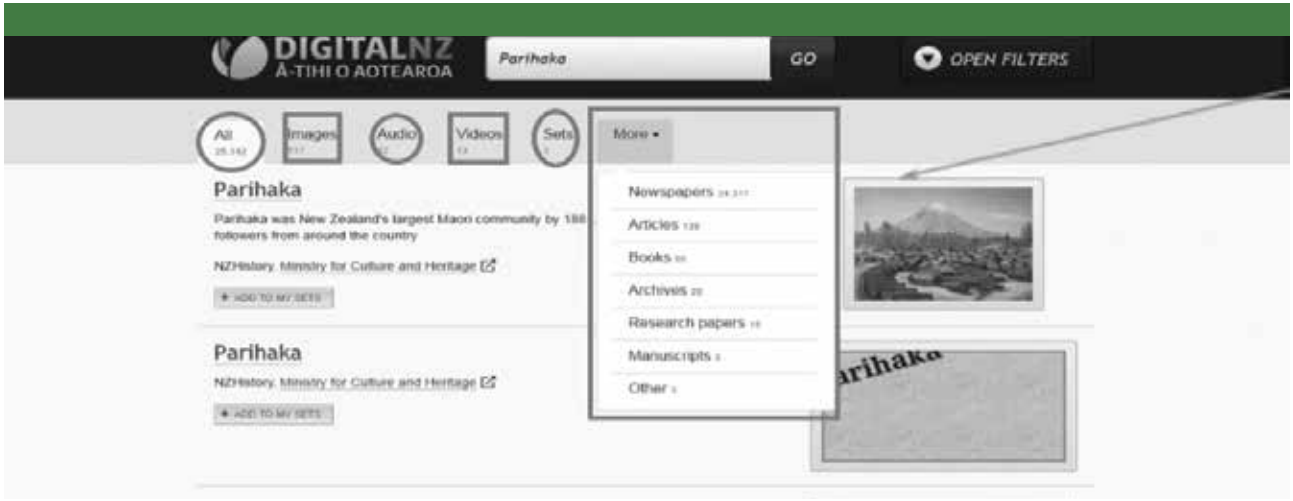

رسم توضيحي (3)

كما يمكننا ملاحظة أنّ هذه المواد تمّ أخذها من موقع «يوروبيانا»:

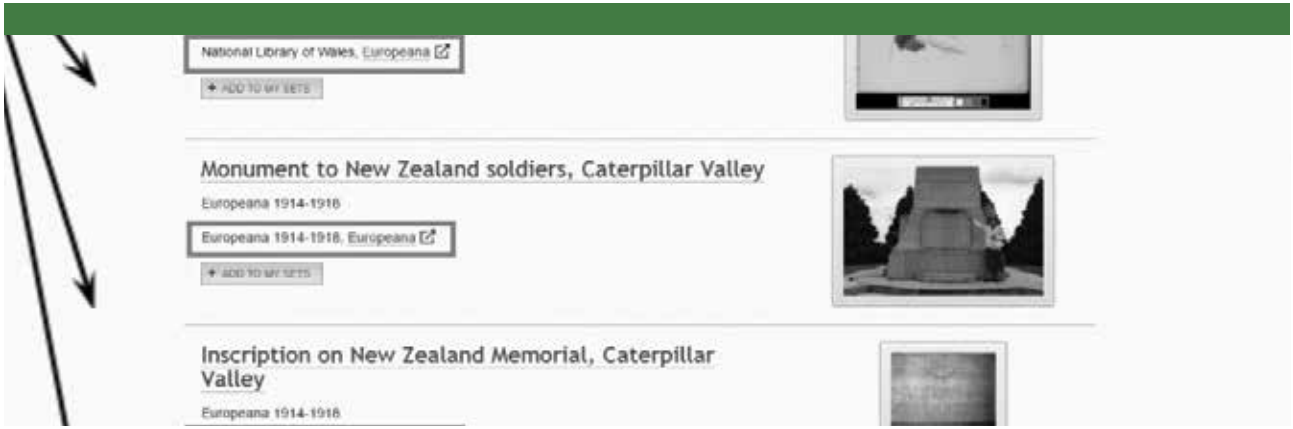

رسم توضيحي (4)

إضافةً إلى ذلك، يمكننا أيضًا تقليص نتائج البحث، من خلال تحديد الفترة الزمنية للموضوع الذي يتم البحث فيه.

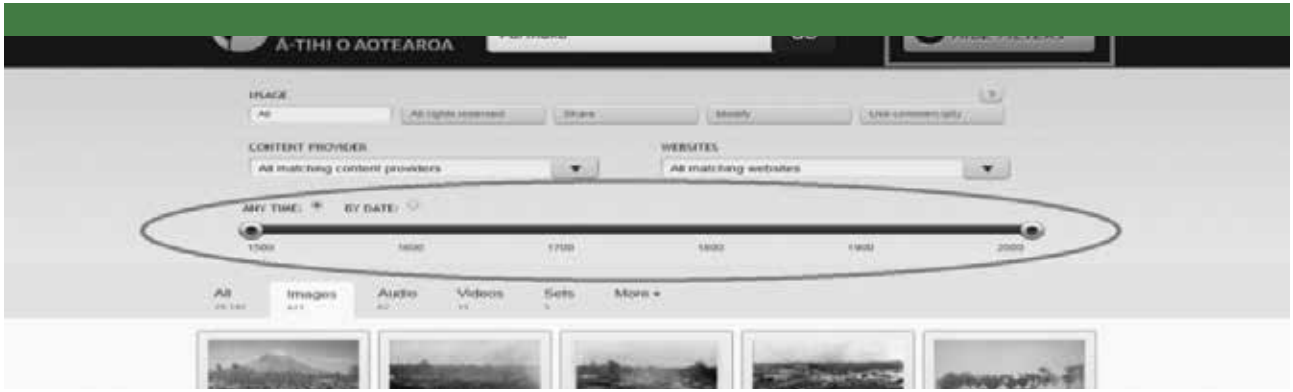

رسم توضيحي (5)

وعندما يتمّ اختيار المادة التي نريد تصفّحها، يظهر لنا أولاً عنوان المادة، والمكان التي نستطيع تصفّحها من خلاله، والمؤسَّسة التي تمتلكها، ويمكن الولوج إلى هذه المؤسَّسة من خلال موقع نيوزيلاندا الرقمية. إضافةً إلى ذلك، يتمّ تحديد الميتاداتا للمادة – نوع المادة - رؤوس الموضوعات. وما يميّز هذا الموقع عن غيره، أنه يسمح بإضافة تعليقات ونقاشات حول المادة التي يتمّ تصفحها. وأخيرًا، يسمح الموقع للمستفيد إمكانية إضافة هذه المادة ضمن مجموعة (Set) حول موضوعٍ محدد. فمثلاً، قد يرغب المستفيد بجمع كلّ ما يتعلّق بالأفلام النيوزيلاندية، أو كلّ ما يتعلق بالشاطئ... تتم هذه العملية من خلال «أضف إلى المجموعة» (Add to Set).

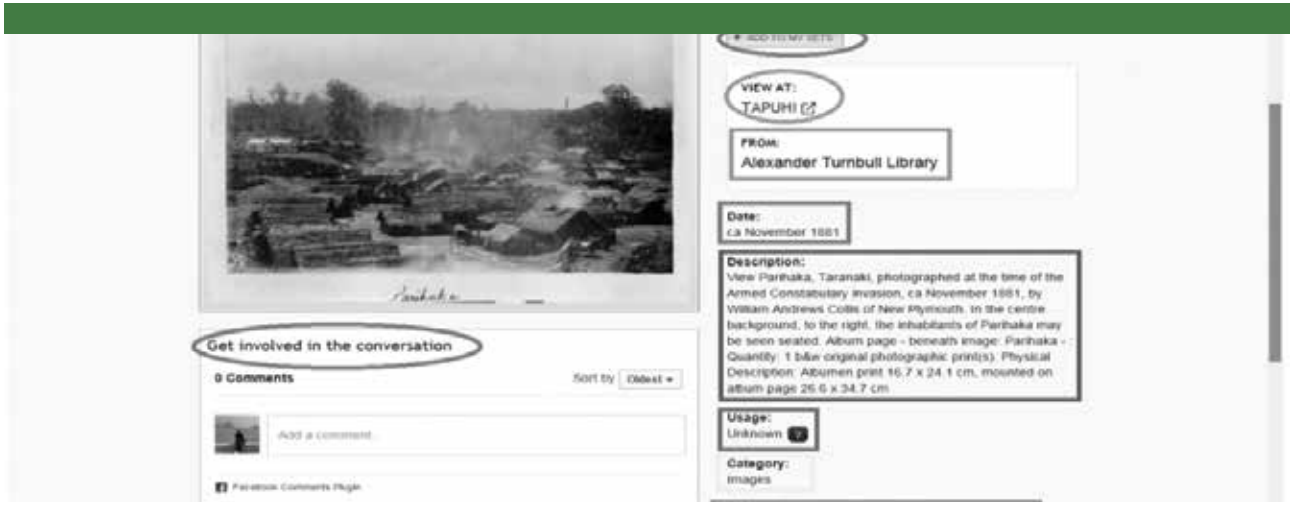

رسم توضيحي (6)

وهكذا، أصبح في الصَّفحة الرئيسية للموقع رابط يحيلنا إلى ما تمّ جمعه من خلال المستفيد:

رسم توضيحي (7)

يعدّ مشروع نيوزيلاندا الرقميّ من أوائل نماذج قطاع اللام. يهدف هذا المشروع إلى جعل الأشكال المختلفة للمواد مترابطة مع بعضها البعض، ويقدّم للمستفيد بياناته المترابطة، ويجعلها مفتوحة له، فتقوي العلاقة بين المستفيد والمحتوى الرقميّ، وتشجّعه على مشاركة هذه المواد وبياناتها وإعادة استخدامها لإنتاج محتوى جديد، وتنمّي الإبداع والابتكار لدى مستفيديها. اللافت أيضًا في هذا المشروع، أنَّه تابع للحكومة النيوزيلانديَّة، ويدار من قبل المكتبة الوطنية النيوزيلاندية، إضافةً إلى أنه يضمّ مؤسّسات من خارج نيوزيلاندا، من مؤسّسات أميركية وأوروبية. وقد أجمعت جميع المؤسَّسات المشاركة على أنَّ هذا الموقع ساهم في تحسين رؤية مواقعهم ومجموعاتهم.

واستطاع المشروع أيضًا أن يثبت إمكانية إعادة استخدام البيانات وتقديم ابتكاراتٍ جديدةٍ. وسمح للمستفيد بالتعامل مع المواد وبياناتها بحريةٍ مطلقة، إذ يستطيع تحويل الصّور الثابتة إلى صورٍ متحركةٍ، أو دمج المواد المتعددة الأشكال لإنتاج مادة جديدة، أو السَّماح للمستفيد بجمع المواد بحسب موضوعٍ يهمه... هذه الحرية في التعاطي مع المواد تشجّع المستفيد على الاتجاه نحو الابتكار.

ونلاحظ أنَّ أكثر ما يرضي المستفيد، هو وصوله إلى المواد بأشكالها المختلفة من خلال مصدرٍ واحدٍ. هذا الأمر وفّر الوقت عليه، وسهّل عملية وصوله إلى المعلومات التي يحتاجها. لقد استطاع المشروع أن يثبت أنّ المستفيد بات مرتبطاً بشكل وثيق بالمحتوى الرقميّ، كما أنه يفضّل أسرع طريقة للوصول إلى ما يريد، وهذا ما يتيحه له مشروع نيوزيلاندا الرقمي.

المراجع:

1. لمراجعة عمل الرابحين في مسابقة «Mix and Mash»، انظر:

http://cutt.us/JSv6.

2. لمراجعة عمل الرابحين في مسابقة «GIF it UP»، انظر:

http://cutt.us/roCwx.

3. لمراجعة أرشيف الصور التي أُعيدَ استخدامها في مسابقة «GIF it UP»، انظر:

http://cutt.us/9zn2b.

4. انظر:

About Digital New Zealand. Retrieved from Website:
http://cutt.us/OCeRb.

5. انظر:

Digital NZ. Retrieved from Website:

http://cutt.us/j5Qd.

غادة دمشق: اختصاصية في مجال المعلومات والمكتبات، ومفهرسة في مشروع النهوض بالمكتبة الوطنية اللبنانية. هي أيضًا مدربة في قواعد وصف المصادر وإتاحتها، وتعد حاليًا رسالة ماجستير في إدارة المعلومات.

للتواصل عبر الإيميل: ghadadimashk@gmail.com

الأرشيف السّمعي البصريّ.. حفظ الذاكرة الجماعيّة

فاطمة البزال

تساءل الأديب والروائي السعودي عبد الرحمن منيف يومًا عن معنى التاريخ بقوله: «التاريخ؟ إعادة رسم الأمكنة والأزمان التي مرَّت؟ تعزيز ذاكرة الأجيال الجديدة؟». إنَّنا نعيد رسم الأمكنة بالصّورة الباقية عن ماضيها، ونعزّز الذاكرة بتسجيل يحيي أسلوب حياة وواقع أصبح ماضيًا للأجيال الحالية. لا حاجة لإبراز أهمية الأرشيف وارتباطه بحفظ الذاكرة وتسجيل التاريخ، لكنَّ للذاكرة السمعية البصرية وقعًا مختلفًا، فالصورة المتحركة المدمجة بالصوت تعيد إحياء الماضي بطريقة أكثر واقعيةً، لأنها تمثل الماضي الحيّ بتفاصيله كافةً، بناسه وعماراته وطرائق عيشه وبيئته. تبرز المقاطع الملتقطة للماضي القريب ارتباطه بالحاضر، وتسعى إلى إعداد الربط بين الحاضر بواقعيّته والماضي بالحنين والشوق إليه. الصورة والصوت يعزّزان الشعور بالانتماء إلى المكان والجماعة، لأنَّهما يستعرضان ماضي المكان بطريقة حيّة، فيبيّنان ملامحه التي قد تغيب عن الفكر في النصّ المقروء عن هذا الماضي.

نستعرض في هذه المقالة أهميَّة الأرشيف السّمعيّ البصريّ، بإبراز لمحة عن تاريخ نشأته وأنواعه، ونعود إلى الحاضر، فنبرز طبيعة العمل الأرشيفي في القرن الحادي والعشرين، والاتجاهات الحالية في الاستثمار بالأرشيف والذاكرة، وعرضها لأكبر شريحة من الجمهور.

أولًا: لمحة تاريخية

لا يمكننا تحديد بداية رسميَّة للعمل الأرشيفيّ السّمعيّ البصريّ، إذ بدأت هذه الأرشيفات من خلال نشاطات متنوّعة، لعلّ أبرزها نشاط المؤسَّسات الأكاديمية في جمع مصادر المعلومات وتنظيمها، ومنها المصادر السمعية البصرية. وبالتالي، اعتبرت كلّ النشاطات المرتبطة بهذه الأنواع الجديدة من المصادر، امتدادًا للعمل اليومي لهذه المؤسَّسات، وتطوَّرت هذه المجموعات نتيجة لتوسّع استخدام الوسائل السَّمعيَّة البصريَّة وانتشارها بشكل عام.

برزت اتجاهات أوليّة في الفصل المؤسّسي لأرشيفات الصوت والصورة والأفلام، وبعدها التلفزيون، لكونها تنتج من مؤسَّسات مختلفة ومتنوّعة. يأتي هذا الفصل انعكاسًا لاختلاف طبيعة المواد ومحتوياتها ضمن كل أرشيف. ولكن منذ ثلاثينيات القرن العشرين، بدأت هذه الأرشيفات تتخذ هويات أكثر وضوحًا، مع نشأة الجمعيات المهنية العالمية التي تمثل كل ميديا/ وسيط بحد ذاته. لاحقًا، ومع ازدياد الاهتمام العالمي بهذه المواد، حازت اهتمام الجمعيات المهنية العالمية التي تُعنى بالمكتبات والمتاحف والأرشيفات واعترافها.

كذلك، لا يمكننا تحديد بداية تاريخية رسميّة لعمل الأرشيفيين السّمعيين البصريين كمجموعة مهنيَّة، إذ كان للأرشيفيين في هذا المجال خلفيات مهنية متنوعة، على الرغم من اجتماعهم حول مبدأ أهمية جمع هذه المواد وحفظها من الضّرر والتّلف، إضافةً إلى إدراكهم أهمية العمل الذي يقومون به. وقد اجتمع على هذا العمل أفراد من مؤسَّسات أكاديمية ومؤسّسات بثّ الصوت والصورة والأفلام، إضافةً إلى أشخاص ذوي خلفيات علميَّة أو فنيَّة.

يمكننا القول إنَّ التسجيلات الصوتية والرسوم المتحركة نالت القيمة والأهمية الأعلى من بين الوسائل الأخرى على الإطلاق مع بدايات القرن العشرين. وبالرغم من أنّ اختراعها كان نتيجة الإبداع العملي في ذلك الوقت، فإنّ أسباب انتشارها السريع وشهرتها تُعزى إلى استخدامها لتحميل مضامين ترفيهية تصل إلى شرائح واسعة من الجمهور. وبذلك، بدأت المؤسَّسات الأرشيفيَّة تتلمّس أهمية هذه المواد ومهمّتها المرتبطة بجمعها والحفاظ عليها، فنجد مثلًا جهود المتحف البريطاني British Museum في جمع مواد الرسوم المتحركة motion pictures، لتكون جزءًا من سجلّه التاريخي. كذلك، نجد مكتبة الكونغرس الأميركيَّة حائرة فيما يجب عليها عمله بأوائل المطبوعات الورقية لبكرات الأفلام السينمائية التي أرسلها صانعو الأفلام إلى المكتبة!

نشأت أرشيفات الأفلام كمؤسَّسات مستقلّة عن مؤسَّسات المعلومات الأخرى في العقد الثالث من القرن العشرين في أوروبا وأميركا الشمالية، واستمرَّ أرشيف الصوت في التطور بالتوازي مع هذه المؤسَّسات الجديدة، ولكن بشكل مستقلّ، وضمن مؤسَّسات متنوّعة. بعد الحرب العالمية الثانية، توسّع انتشار مؤسَّسات أرشيف الأفلام، ووصل إلى أنحاء العالم كافة، وذلك بعد أن أصبحت الأهمية والقيمة الثقافية للمواد السمعية البصرية ظاهرة وملموسة ومعروفة وشرعية وذات قبول واسع. وفي العشرينيات من القرن العشرين، أنتج تطور الراديو أشكالًا جديدةً من المواد غير التقليدية، التي تتطلَّب جهودًا وتقنيات حفظ مختلفة. كذلك الأمر بالنّسبة إلى الأفلام الّتي لاقت انتشارًا في الأربعينيات من القرن

نفسه، وأنتجت أيضًا أنواعًا وأشكالًا جديدة من المواد التي تحمل مضامينها، وتتطلَّب جهودًا مختلفةً وبيئةً جديدةً لحفظها. كذلك، طرحت تساؤلات حول إمكانية الإتاحة المستقبلية لهذه المواد، بعد تغيّر المادة الحاملة لمحتوى الفيلم وتطوّرها.

إنَّ المشهد في عالم القرن الحادي والعشرين بات أكثر تعقيدًا مع التطورات التكنولوجيَّة المرتبطة ببيئة إنتاج المعلومات وبثّها وإتاحتها بشكل عام. طرحت شبكة الإنترنت إمكانيات أكثر، فتعدَّدت الوسائل التي تحمل المحتوى السّمعي البصريّ، وانتشرت بشكل سريع جدًا. الأقراص المدمجة الحاملة للأفلام والصور والموسيقى لاقت رواجًا واسعًا في أواخر القرن العشرين، لكن إتاحتها ارتبطت باقتناء هذا القرص أو استعارته من مؤسسات المعلومات (المكتبات والأرشيفات). أما شبكات التواصل الاجتماعي، فهي تطرح تحديات أكبر وأكثر تعقيدًا، إذ صارت إتاحة الوصول إلى الأفلام والمواد الموسيقية مفتوحة نوعًا ما ومرتبطة بالاتصال بشبكة الإنترنت. أنتج اليوتيوب ثورة في هذا المجال، وأعطى خيارات واسعة في البحث عن المضمون السمعي البصري والوصول إليه. طرحت هذه التطوّرات في بيئة بثّ المضمون السمعي البصري تساؤلات بالنسبة إلى المؤسَّسات الأرشيفية، وأعطتها مهمات كبرى مرتبطة بملاحقتها، كمضامين أرشيفيّة، والعمل على حفظها لتسهيل إتاحتها مستقبليًا.

من خلال هذا العرض التاريخيّ، نستنتج وجود أنواع أساسيَّة من الوثائق التي تقتنيها الأرشيفات السّمعية البصريّة، وفقًا للتطورات التقنية التي أنتجت أنواعًا مختلفة من المواد. ففي مجال البصريات، نتحدَّث عن الصور والأفلام، وفي مجال السّمعيات، نتحدَّث عن تسجيلات الراديو والموسيقى والأفلام أيضًا. إذًا، تجمع الأفلام عناصر سمعيَّة بصريَّة، فتدمج الصّورة بالصّوت، لتكوِّن مشهدًا تمثيلًا حيًا مقاربًا للحياة الواقعيّة.

ثانيًا: أنواع الأرشيفات السَّمعية - البصريَّة

نستعرض هنا أنواعًا من الأرشيفات السَّمعية البصريَّة، تبعًا لاختلاف طبيعة نشاطاتها، والمواد التي تقتنيها، والجمهور الذي تستهدفه. قد تنتمي بعض الأرشيفات إلى واحدة أو أكثر من هذه الأنواع. نشأ بعضها نتيجة سياسة واضحة ومحدّدة، ومنهجية سليمة متّبعة بالنسبة إلى اقتناء المجموعة وحفظها، بينما نشأت أرشيفات أخرى نتيجة اقتناء مجموعة شخصيَّة أو مؤسَّسيَّة في الدّرجة الأولى.

1. أرشيفات البث Broadcasting archives

تحفظ هذه الأرشيفات بالمبدأ مجموعة مختارة من برامج الراديو و/ أو التلفزيون، إضافةً إلى مجموعة من التسجيلات الدعائية والإعلانية. يمثل عادة هذا النوع من الأرشيفات قسمًا من المؤسسات الإعلامية والإعلانية، سواء كانت مؤسَّسات ضخمة ومعروفة أو صغيرة ومغمورة. قد تتضمَّن مجموعاتها بعض المواد الخام، منها المقابلات بصيغتها الأولية قبل عملية المونتاج وتسجيلات المؤثرات الصوتية، إضافةً إلى مجموعة من المواد المرتبطة، كتسجيلات البرامج program scripts الإذاعيَّة والتلفزيونيَّة.

2. المتاحف السّمعية البصريّة

تعمل هذه الأرشيفات على حفظ مجموعة الأدوات المستخدمة لصناعة المواد السمعية البصرية وعرضها، ومنها الكاميرات وأجهزة العرض والفونوغراف والملصقات والدعاية والأزياء والتذكارات. وإضافةً إلى هذه المعدات، تعمل هذه الأرشيفات على عرض مجموعة من الصور والصوتيات في معارض مفتوحة للزوار، لأهداف تعليمية وترفيهية.

3. الأرشيفات السّمعية البصريّة الوطنيّة

تعمل هذه الأرشيفات على مستوى الوطن ككلّ، فهي هيئات ذات

مسؤوليّة كبرى مرتبطة بحفظ الذاكرة الوطنية السمعية البصرية. لذلك، نجدها تعمل على جمع التراث السمعي البصري وتوثيقه وحفظه ضمن ظروف ملائمة تسمح له بالبقاء لأطول أمد ممكن، وبالتالي تهيئ ظروف إتاحته للأجيال المستقبليّة. إنها أرشيفات ممولة حكوميًا تعمل على حفظ الأفلام والصوتيات المصنّفة بأنها الأكبر والأكثر شهرة عالميًا. تستقبل هذه الأرشيفات كلّ الأفلام والموادّ الأخرى المنتجة محلّيًا في سياق تطبيق قانون الإيداع الإلزامي، وتعمل بذلك على توثيق الذاكرة المحلية السّمعية البصريّة وحفظها للإتاحة المستقبليّة. قد تشكّل هذه الأرشيفات دائرة إدارية من المكتبة الوطنية أو الأرشيف الوطني أو المتحف الوطني، وقد تشكّل مؤسسة قائمة مستقلة بحدّ ذاتها، وذلك يرجع إلى سياسة البلد العامة، وإلى ضرورة إنشاء مؤسَّسة مستقلّة معنيّة بالمواد السمعية البصرية بالتحديد.

4. أرشيفات الجامعات والمؤسَّسات الأكاديميّة

تقتني بعض المكتبات الجامعيَّة والأكاديميّات العالميَّة مواد سمعية بصرية، كجزء من مجموعتها المكتبية، بهدف خدمة الباحثين الأكاديميين، ويمكنها أن تمارس دورًا مرتبطًا بحفظ التراث السّمعيّ البصريّ للمنطقة الجغرافيّة التي تخدمها، فيَعظم دورها على مستوى الوطن ككلّ، كحافظةٍ لتراثه.

5. الأرشيفات المتخصّصة موضوعيًا

هي أرشيفات متخصِّصة بموضوع محدّد، لا تخدم هدف حفظ الذاكرة بشكل عام، بل تسعى نحو نوع أكبر من التخصّص، من خلال اختيار حقل موضوعيّ معيّن،

للذاكرة السمعية البصرية وَقْعٌ مختلف، فالصورة المتحركة المدمجة بالصوت تعيد إحياء الماضي بطريقة أكثر واقعيةً، لأنها تمثل الماضي الحيّ بتفاصيله كافةً، بناسه وعماراته وطرائق عيشه وبيئته.

والعمل على جمع تراثه السمعي البصري وحفظه. يتركّز عمل هذه الأرشيفات على موضوع أو ثيمة محددة أو منطقة جغرافية أو فترة زمنية. نجد مثلًا أرشيفات متخصّصة بحفظ تراث مجموعات إثنية أو قومية أو ثقافية محدّدة، كما نجد أرشيفات أخرى تسعى إلى خدمة حقول بحثيّة وأكاديميّة محدّدة. وهنا تبرز مؤسَّسات الأرشيف الشّفهي ومكتبات السّينما والفيديو.

6. أرشيفات الاستديو Studio Archives

تعمل بعض شركات إنتاج الأفلام على حفظ أرشيفها وصيانته، من خلال إنشاء وحدات وأقسام إدارية خاصَّة لهذه المهمَّة. وقد صار الأرشيف، بالنّسبة إليها، وعيًا لتاريخها وسير عملها، وحفظًا لمجموعاتها من الضَّرر والتّلف.

7. المكتبات والأرشيفات والمتاحف بشكل عام

تكونّ الموادّ السّمعية البصريّة، والموادّ المصاحبة لها، جزءًا من مجموعات المكتبات والأرشيفات بشكل عام، وجزءًا من معروضات المتاحف العامَّة ومقتنياتها.

ثالثًا: الأرشيف بالمجانّ مقابل الأرشيف كاستثمار

لا قيمة للذاكرة المخفيَّة، فالحفظ الأرشيفيّ مقرون دائمًا بالإتاحة، وهو ما تعمل عليه كل مؤسَّسات المعلومات من أرشيفات ومتاحف ومكتبات، لكنَّ هذه الذاكرة قد تصبح بحدِّ ذاتها سلعة قابلة للاستثمار، وهو اتجاه يتعزَّز تدريجيًا مع زيادة الوعي بأهمية هذه الذاكرة المهدّدة بالضياع في أية لحظة، في ظلِّ كل ما نشهده من أحداث في عالمنا العربي بالتحديد.

وعلى الرغم من أنَّ مفهوم الإتاحة هو في صميم مهامّ المؤسَّسات الأرشيفيَّة، فإنَّ هذه الإتاحة قد لا تكون مطلقة وعامّة ومفتوحة بالنسبة إلى بعض المؤسَّسات، لأنَّ الأرشيف قد يكون مصدر استثمار مربحًا جدًا، وخصوصًا إذا أصبح يمثّل ذاكرة أمكنة وأشخاص وطرائق عيش مهدّدة بالاندثار.

أبرزت التكنولوجيا الحديثة أهميّة الأرشيف، وقرّبته إلى الناس، وعزَّزت قيمته لديهم. ففي لبنان على وجه الخصوص، نجد الكثير من المؤسَّسات التي تستثمر في الأرشيف السّمعي البصريّ، منها أرشيفات المؤسَّسات التلفزيونية وأرشيفات مؤسَّسات الإنتاج الفيلميّ الوثائقيّ. وهناك اتجاه آخر يسعى إلى عرض الأرشيف عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ، لضمان وصوله إلى أوسع شريحة ممكنة من الجمهور. من هنا، نجد الكثير من الصَّفحات التي توثّق الذاكرة اللبنانيَّة في الفايسبوك مثلًا.

إنَّ تجربة مؤسَّسة أرشيف فايرهورس «Fire Horse Archive» بارزة في هذا السِّياق، وهي مؤسَّسة منتجة للأفلام الوثائقيَّة والبرامج التلفزيونيَّة. وطبيعة الأفلام الوثائقية التي أنتجتها الشركة كوَّنت لديها كنزًا أرشيفيًا يوثّق ذاكرة المجتمع العربيّ بالتحديد، فعملت بموازاة شركة الإنتاج على إنشاء شركة للأرشيف تستثمر فيها الذاكرة الغنية التي كوَّنتها على مدار أكثر من عشرين عامًا من العمل في إنتاج الأفلام الوثائقيّة.

أنتجت الشركة أفلامًا وثائقيَّة تحاكي المجتمع العربيّ وأنماط الحياة والثقافة والعمارة والمناظر الطبيعية والهندسة الطبيعية فيه، فكوّنت بذلك مخزونًا من لقطات الفيديو لأشخاص وأماكن ومناظر عامَّة قد لا نمتلك الإمكانيَّة لإعادة التقاطها في وقتنا الحالي. في هذا الأرشيف، نجد مثلًا لقطات لقلعة تدمر الأثريَّة في أوائل القرن الحادي والعشرين، أي قبل احتلال داعش لها وتدمير قسم منها. نجد كذلك لقطات توثّق تراث المجموعات الدينية والإثنية والعرقية في شرقنا، منهم السّريان والأكراد والأقباط والشيعة واليهود وغيرهم. هذا الأرشيف الغني جدًا أصبح في متناول الجمهور بعد عمل المؤسَّسة على توثيقه وحفظه

طبقًا للمعايير العالمية، لكنَّ إتاحته مشروطة بمبلغ ماليّ تتقاضاه الشركة عن كل صورة أو مقطع فيديو يحتاجه المستفيد.

ونجد في صفحات الفايسبوك الكثير من الصور والأفلام التي توثّق الذاكرة اللبنانيَّة بالتحديد. فصفحة «تراث بيروت» مثلًا، تعرض صورًا ولقطات فيديو عن بيروت والبيارتة، قد ترجع إلى القرن الثامن عشر. ونجد فيها مثلًا صورة لمرفأ بيروت في القرن التاسع عشر، وصورًا أخرى للجامعة الأميركيَّة في بيروت منذ عهدها الأول وبداياتها في منتصف القرن التاسع عشر.

وتوجد صفحة أخرى تسعى إلى توثيق ذاكرة الحرب الأهلية اللبنانية بالتحديد، تحمل اسم «Memory at work ديوان الذاكرة اللبنانية»، وهي صفحة الفايسبوك الخاصة بمشروع «ديوان الذاكرة اللبنانية: دليل اللبنانيين إلى الحرب والسلم»، الذي يعمل عليه «مركز أمم للتوثيق والأبحاث». تعرض هذه الصفحة مجموعة من الوثائق والصور التي توثّق مراحل الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة بين العام 1975 والعام 1990.

على الرغم من أنَّ بعض جهود عرض الذاكرة عبر مواقع التواصل الاجتماعي تعتبر فرديةً وغيرَ منتظمةٍ مؤسساتيًا، وعلى الرغم من بعض العوائق المالية القائمة للحصول على مستندات أرشيفيَّة من المؤسَّسات التي تخلق هذا الأرشيف وتستثمر فيه، فإنَّ جميع هذه الجهود مباركة، لأنها تعيد الحياة إلى ماضٍ قريبٍ أو بعيدٍ يسعى البعض إلى طمس معالمه وإخفائه من التاريخ.

قال الأديب السّوري فرج بيرقدار يومًا: «بأحذيتهم يحاولون محو ماضيك، وبأسنانك وأظافرك تحاول أن تتشبَّث بالزمن والذاكرة والأحلام».

قال الأديب السّوري فرج بيرقدار يومًا: «بأحذيتهم يحاولون محو ماضيك، وبأسنانك وأظافرك تحاول أن تتشبَّث بالزمن والذاكرة والأحلام».

المراجع:

1. الأرشيف السمعي البصري: هل الذاكرة الجامعية في خطر؟ مجلة الإذاعات العربية، العدد 2، 2013.
2. المناصير، محمد، الحفظ والصيانة لأرشيفات الصوت والصورة: الترميم والرقمنة، 2013.
3. «تراث بيروت»، صفحة في موقع فايسبوك. آخر مراجعة بتاريخ 20 نيسان/ أبريل 2017.
4. انظر:

Edmondson, Ray (2004). Audiovisual archiving: philosophy and principles. Paris: United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

5. انظر:

Okahashi, Akiko (2011). Preservation of Audiovisual Collections at the Nationa Diet Library

6. انظر:

Fire Horse Archive website. Available at

http://firehorsearc.com/ Last viewed on 20 April 2017

فاطمة البزال: اختصاصيَّة في مجال المعلومات والمكتبات، ومفهرسة في مشروع النهوض بالمكتبة الوطنية اللبنانيَّة. حائزة على ماجستير في إدارة المعلومات، وهي مدربة في مجال الفهرسة والتكشيف الموضوعي.

للتواصل عبر الإيميل: fatimaalbazzal@gmail.com

البيانات الضّخمة
إعصارٌ يحتوي العالم

زينب البزال

مع الازدياد الهائل في كميّات البيانات المُنبثقة من مصادر رقميّة متعدّدة، أصبحت الحاجة إلى تحليلها ملحّة، ما يجعل هذه البيانات الَّتي كانت تُعتَبَر مُظلمة وغير مجدية طيلة سنوات، ذات أهميّة كبرى. وبما أنَّ الشّركات أصبَحت مُلزَمَة بتقديم نتائج تحليل مباشرة، فإنَّ عملية تحليل بياناتها الضّخمة أصبحت ضرورة مهمّة.

تُعتَبر شركات غوغل وأمازون وفايسبوك وغيرها رائدة في مجال تحليل البيانات الضّخمة، فغوغل يجري عمليّات بحثيّة في ملايين المواقع لإيجاد نتائج جيّدة ومطابقة لطلبات البحث، وأمازون يعرض لمستخدميه مقترحات شخصيّة ذكيّة للشراء، وفيسبوك يعرض لمالك الحساب مقطعًا قصيرًا من الفيديو يشمل مختصرًا لأهمّ الأحداث من ضمن المنشورات النصيّة والصور ومقاطع الفيديو و«الإعجابات» والتعليقات الموجودة لديه منذ إنشاء حسابه.

هذه الشّركات تستخدم المعلومات المستخرجة من البيانات الضّخمة للحصول على قيمة تنافسيّة. فلو فكّرنا في نظام أمازون الذي يقدّم اقتراحات للمستخدم، فإنّ الشركة هنا تستخدم تاريخ المشتريات لدى المستخدم، إضافةً إلى ما تعلمه عنه من أنماط الشراء وأنماط شراء المستخدمين الَّذين يشبهونه، من أجل تقديم بعض المقترحات الجيّدة والمفيدة له. إنّها آلة تسويقيّة. كما أنّ إمكانيّات التحليل الضّخمة لدى هذه الشّركات جعلتها ناجحة بشكل كبير.

ما هي البيانات الضّخمة؟

«البيانات الضّخمة» هي مصطلحٌ «ساخن» في عالم المعلومات والمعلوماتيّة. قبل الدّخول في تعريفها وتقديم معلومات تفصيلية عنها، نعرّف في المقابل مصطلح «البيانات الصّغيرة»، فما يُسمّى عادةً بالبيانات هو في الواقع «بيانات صغيرة».

تُوصف البيانات الصّغيرة بأنّها ذات حجم وشكل يمكّنها من أن تكون متاحة ومُخْبِرَة وفعّالة، فهي عادةً تُعطي معلومات من شأنها الإجابة عن أسئلة محدّدة أو معالجة مشكلة محدّدة. من الأمثلة على ذلك: نتائج مباريات، تقارير مبيعات محدّدة، أسعار منتجات محدّدة وأنماط تغيّرها... تتميّز هذه البيانات بأنّها محدّدة من حيث الشّكل وطريقة الحفظ، ممّا يتيح استخراجها وتحليلها بطريقة واضحة.

في المقابل، فإنّ مصطلح «البيانات الضّخمة» يصف أيّ حجم من البيانات التي قد تكون مهيكلة بالكامل أو جزئيًا أو غير مهيكلة نهائيًا، والتي تمكّننا من استخراج المعلومات.

تتميّز البيانات الضَّخمة بثلاثة أبعاد:

1. ضخامة الحجم.
2. التنوّع الكبير في الشَّكل وطريقة الحفظ.
3. السّرعة المطلوبة للمعالجة والتّحليل.

ورغم أنّ مصطلح البيانات الضّخمة لا يعبّر عن قيمة محدّدة لحجم البيانات، فإنّه غالبًا ما يستخدم للتعبير عن «تيرابايتس»، «بيتابايتس»، وحتّى «هيغزابايتس» من البيانات المحصّلة عبر الزّمن.

من أين تأتي البيانات الضّخمة؟

يتمّ جمع البيانات الضّخمة من عددٍ لا يُحصى من المصادر، من مثل سجلّات المبيعات التجاريّة، سجلّات الاختبارات العلميّة، وعمليّات البحث عبر محرّكات البحث... قد تكون هذه البيانات خامًا (أوليّة) أو خاضعة لمعالجة مسبقة باستخدام أدوات برامج الحاسوب قبل أن يتمّ تحليلها. أمّا بالنسبة إلى حفظ البيانات، فقد تكون محفوظة بطريقة مهيكلة، من مثل (SQL Database)، أو غير مهيكلة، أو متدفّقة من أجهزة الاستشعار.

يقوم كلّ مشروع تحليليّ للبيانات الضّخمة بعمليّات البحث والرّبط وتحليل مصادر البيانات. بعد ذلك، يعطي جوابًا أو نتيجةً، بناءً على طلبٍ محدّد. ولهذه الغاية، فقد توسّعت عمليّات تحليل البيانات لتشمل مجالات التعلّم الآلي والذّكاء الاصطناعي.

نظرة تاريخيّة إلى البيانات الضّخمة

أتاح ظهور الإنترنت في العام 1991 لكلّ شخص بأن يكون متّصلًا، بحيث يستطيع تحميل معلوماته وتحليل المعلومات المحمّلة من قبل الآخرين. وفي العام 1997، ظهر محرّك البحث «غوغل» الّذي سرعان ما أصبح الأكثر شهرةً واستخدامًا في العالم. وفي العام 1999، استُخدم مصطلح «البيانات الضّخمة» لأوّل مرّة، وذلك في رسالة أكاديميّة باللّغة الإنكليزيّة بعنوان «Visually Exploring Gigabyte Datasets in Real Time». وفي العام نفسه، استُخدم مصطلح «إنترنت الأشياء» في خلال تقديم عرض عمل من قِبَل كيفن آشتون.

في العام 2000، حاول پيتر لايمان وهال فاريان (اقتصادي لدى غوغل حاليًا)، أن يحدّدا حجم البيانات الرقميّة السّنوية في العالم ونموّها، فتوصّلا إلى أنّ إنتاج العالم السّنوي من المطبوعات والأفلام والصّور وغيرها يحتاج إلى 1.5 جيغابايت من حجم التخزين، أي ما كان يعادل 250 ميغابايتًا لكلّ شخص. بعد ذلك، حدّد دوغ لاني في العام 2001، الأبعاد الثلاثة لإدارة البيانات، وهي: حجم البيانات، تنوّع شكلها، وسرعة استخراجها.

دخل الويب مرحلة 2.0 (Web 2.0) في العام 2005، ممّا دفع إلى ازدياد حجم البيانات بشكل كبير جدًّا، إذ أصبحت تُنتَج مباشرةً من المستخدم، بدلًا من مقدّم الخدمة على الويب. في هذه المرحلة، ظهر الفايسبوك، ما أتاح لملايين المستخدمين تحميل البيانات ومشاركتها مع أصدقائهم. وفي هذه المرحلة أيضًا، تمّ إنشاء هادوب (Hadoop)، وهو نظام مفتوح المصدر (open source)، صُنع خصّيصًا لحفظ مجموعات البيانات الضخمة المتنوّعة (صوتيّة، فيديو، نصّية) وتحليلها.

في العام 2010، قال إيريك شميديت، المدير التنفيذي لدى غوغل، في مؤتمر، إنّ كميّة البيانات التي تصدر خلال يومين، توازي البيانات الّتي صدرت منذ بداية الحضارة الإنسانيّة وحتّى العام 2003. ساهمت أجهزة الهواتف المحمولة بشكل كبير في ذلك، فقد أصبح الكثير من الأشخاص يستخدمون هواتفهم الجوّالة للوصول إلى البيانات الرقميّة. وبعد أربع سنوات، بدأ «الموبايل إنترنت» يحلّ محلّ الديسكتوب. وهنا، أصبحت الحاجة إلى تحليل البيانات الضّخمة ملحّة.

فوائد عمليّات تحليل البيانات الضّخمة

1. خفض الإنفاق: تحقّق تكنولوجيا البيانات الضّخمة، مثل هادوب، والتّحليلات المبنيّة على التقنيّات السحابيّة (Cloud-based Computing)، مزايا كبيرة لجهة التكلفة، عندما يتعلّق الأمر بتخزين كميّات ضخمة من البيانات.
2. السرعة والفعاليّة في اتّخاذ القرار: يتميّز نظام هادوب بسرعة تحليليّة عالية، إضافةً إلى إمكانيّة تحليل بيانات من مصادر جديدة، ما يسمح بالقيام بالتّحليل واتّخاذ القرار بشكل مباشر.

3. إيجاد منتجات وخدمات جديدة: لقد أصبح بالإمكان استحداث منتجات وخدمات جديدة ترضي المستخدم بشكل أكبر.

التكنولوجيا الرئيسيّة المستخدمة في التَّحليل

- إدارة البيانات: يجب أن تكون البيانات ذات جودة عالية ومحكمة جيدًا قبل القيام بتحليلها. فمع تدفّق البيانات باستمرار داخل المنظّمة وخارجها، كان من الضروري إنشاء عمليّات متكرّرة لبناء معايير جودتها والحفاظ عليها. وبمجرّد أن تصبح البيانات موثوقة، يتوجّب على المؤسّسات إنشاء برامج رئيسيّة لإدارتها.

- التنقيب في البيانات (Datamining): هي التكنولوجيا الَّتي تساعد على فحص كميّات ضخمة من البيانات، من أجل اكتشاف الأنماط فيها. هذه الأنماط من شأنها المساهمة في تحليلات لإعطاء إجابة عن مسألة عمليّة.

- هادوب (Hadoop): هو برنامج مفتوح المصدر لإطار عمل (open source software framework)، يمكّن من تخزين كميّات ضخمة من البيانات. لقد أصبح هادوب التكنولوجيا الرئيسية لممارسة الأعمال التجارية، بسبب الزيادة المستمرة في حجم البيانات وتنوّع أشكالها، كما أنّ نموذج الحوسبة الموزّعة لديه، يمكّن من تحليل البيانات بسرعة كبيرة.

- التحليل في الذاكرة (In-memory analytics): من

يقوم كلّ مشروع تحليليّ للبيانات الضَّخمة بعمليّات البحث والرّبط، ثم يعطي نتيجةً بناءً على طلب محدّد. ولذلك، توسّعت عمليّات تحليل البيانات لتشمل مجالات التعلّم الآلي والذّكاء الاصطناعي.

خلال تحليل البيانات من ذاكرة النظام (بدلًا من محرك القرص الثابت)، يمكن استخلاص رؤى فورية من البيانات والتصرّف بسرعة بناءً عليها.

- التحليلات التنبؤية (Predictive analytics): تستخدم تقنيّة التحليلات التنبؤية الخوارزميات الإحصائيّة وتقنيات التعلّم الآلي لتحديد احتمالات النتائج المستقبليّة، استنادًا إلى البيانات التاريخيّة.

- تنقيب النّصوص (text mining): تمكّن هذه التكنولوجيا من تحليل البيانات النصّية من شبكة الإنترنت، وتعليقات المستخدمين، والكتب والمصادر النّصيّة الأخرى، للكشف عن رؤى لم تتم ملاحظتها من قبل.

لقد أصبح معلومًا لدى معظم المؤسّسات الّتي تمتلك البيانات، بأنّ عمليّة اقتناء جميع البيانات الّتي تتدفّق إليها وحفظها، تمكّنها من القيام بعمليّات تحليليّة تؤدي إلى فائدة كبيرة. فمنذ عشرات السنين، وقبل بروز مصطلح «البيانات الضّخمة» بعقود، كانت الكثير من الشركات تستخدم أنظمة تحليليّة بدائيّة للقيام بعمليات تحليليّة، لكنَّ التميّز الّذي تقدمه اليوم الطرق الجديدة لتحليل البيانات الضّخمة، هو عامل السّرعة والفعاليّة. ففي السّابق، كانت البيانات تُجمع أولًا، ومن ثمّ يجري القيام بتحليلها لاتخاذ قرارات مستقبليّة. أمّا اليوم، فقد أصبحت عمليّة التحليل تتمّ بسرعة عالية جدًا وبشكل آنيٍّ، ممّا يمكّن المؤسّسات من امتلاك قيمة تنافسيّة كانت تفتقر إليها من قبل، فالقيام بهذا التّحليل يؤدّي إلى جني أرباح أكبر، ويجعل المستخدم أكثر رضًى.

المراجع:

1. انظر:

Marr, Bernard (2015). A brief history of big data everyone should read.Available at: https://www.linkedin.com/pulse/brief-history-big-data-everyone-should-read-bernard-marr. Last seen on 24 April 2017

2. انظر:

SAS (2011). Big data meets big data analytics. Available at: http://cutt.us/oqcBs. Last seen on 24 April 2017

3. انظر:

Hurwitz, Judith (2017) How to analyze big data to get results

4. رولتا (Rolta 2016)، تحويل البيانات إلى نتائج أعمال، انظر:

http://cutt.us/uUz62

زينب البزال: اختصاصيّة في مجال البرمجة، وهي مبرمجة محلّلة في إدارة الإحصاء المركزي.

للتواصل عبر الإيميل: albazzalzainab@gmail.com

Semi-Structured
Unstructured data
Unstructured content
Petabyte
analysis
Volume
Useful
Metadat
BIG
DATA
AMP
People driven
Decision making
Zettabyte
Framework
Smart content
database
Concept extracti
Text analytics
Semantic Metadata
VAST
Structured

قصة مثك سلم للعامل

ولد

تابع

لكي يا خذ من المال الذي فى المخزن باسمي ماهو مرقوم فى الذيل

تاريخ ١٣

تاجر الا سلحة مسقط

مؤيد من

مدير المخزن

مصدق من

سلطان مسقط وعمان

مهر جلالة السلطان

ثبت وصدر

نمرة

تاريخ ١٣

قصة مثك سلم للعامل

ولد

تابع

لكي يا خذ من المال الذي فى المخزن باسمي ماهو مرقوم فى الذيل

تاريخ ١٣

تاجر الا سلحة مسقط

مؤيد من

مدير المخزن

مصدق من

سلطان مسقط وعمان

مهر جلالة السلطان

ثبت وصدر

تاريخ ١٣

وثيقة وحكاية

السّلاح بين التّجارة والسّياسة زمن الإنجليز في الخليج

د. محمد السلمان

باعتراف الوثائق البريطانيّة، فإنَّ تجارة السّلاح انتعشت، والرغبة في امتلاكه في الخليج توسّعت، وخصوصًا في السّاحل العربي منه، بعد الحرب البريطانية - الأفغانية (1879 - 1880). لذا، انتبهت السّلطات الإنجليزيّة في الخليج بعد نشوب الحرب الأفغانية الثالثة إلى هذه القضيَّة، إثر نجاح استخباراتها بتتبّع وصول السلاح بكميات كبيرة إلى الهند عن طريق الخليج وفارس، فجاءت تدابير تقييد حركة السّلاح في الخليج للمرة الأولى بشكل سريع في العام 1880، عندما أمرت حكومة بومباي بعدم منح الرخص لتصدير الشحنات الثقيلة من الأسلحة والذخيرة إلى موانئ الخليج، وبإجراء مراقبة دقيقة لعملية استيراد مثل تلك الشحنات في كراتشي وفي الساحل الغربي للخليج.

وسرعان ما أذعنت حكومة فارس لطلب السلطات الإنجليزية في الخليج، وأعلنت في العام 1881 أنّ عمليّة استيراد الأسلحة وذخائرها في فارس غير شرعية، وصدر مرسوم من الشاه بحظر هذه التجارة في ميناء بوشهر في يونيو/ حزيران من العام 1881، حيث كان أوَّل المستوردين من القطاع الخاصّ للأسلحة في الخليج، في ميناء «بوشهر»، شركة (أ. وب. ج. مالكوم)، ثم تبعتها شركة فريسيس تايمز (Fracis Times)، وهي صاحبة البيت التجاري الفرنسي الإنجليزي، وتعتبر أول وكالة لبيع الأسلحة تأسَّست في بوشهر في العام 1887.

كما حثَّت شيخ البحرين، عيسى بن علي، على إصدار حظر عام لتجارة السلاح في العام 1896، على رعاياه والرعايا الأجانب. وكان تبرير ذلك الرغبة في إيقاف الإدخال العشوائي للأسلحة والذخائر إلى البحرين والساحل المجاور، إلا أنه استثنى واردات الرعايا البريطانيين من الحظر، وفرض ضريبة عليها بقيمة 25 في المئة.

كنا نودّ فتح ملفّ تجارة السّلاح في الخليج من أكثر من زاوية، ولكن لضيق مساحة هذه الحكاية، آثرنا الإشارة فقط إلى بعض الوثائق الخاصّة بهذه التّجارة، وخصوصًا أنَّ العديد من الوثائق البريطانية تم الكشف عنها ضمن ملف تجارة الأسلحة في الخليج مؤخرًا بين القرنين التاسع عشر والعشرين، مما تنشره تباعًا مكتبة قطر الرقميّة. كما أفرد (ج. ج. لوريمر) في مصنّفه الموسوم اختصارًا بـ «دليل الخليج»، حوالى 66 صفحة في ملحق «س»، غطّت بعض ما يخصّ تجارة السلاح في فترة الحماية البريطانية في الخليج منذ العام 1879 وحتى العقد الأول من القرن العشرين، قُبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

«حكاية وثيقة» لهذا العدد من ملفّ تجارة السلاح في الخليج، تبحث في السلاح بين التجارة والسياسة البريطانية في المنطقة، الَّتي عملت طوال تلك الحقب على إدارة هذه التجارة وفقًا لمصالحها، وحفاظًا على مكتسباتها، وضمانًا لوجودها واستمرار احتكارها لكلّ أنواع التجارات في المنطقة، المحرمة أو غير المحرمة، من وجهة نظرها هي فقط.

وبناءً عليه، نشير اعتمادًا على الوثائق المنشورة في هذه الوريقات، إلى أنَّ الإجراءات البريطانية التي ذكرناها في المقدّمة، لم تنفع كثيرًا، ولم تحدّ من تجارة السلاح في الخليج، مع بروز تنافس محموم بين شركات صنع الأسلحة الأوروبية وتصديرها إلى مناطق النزاع العربي ذات التربة الخصبة عادةً لمثل هذه التجارة منذ تلك السنوات وإلى اليوم. وبناءً على هذا الأمر، تحركت حكومة الهند البريطانيّة، بالتنسيق مع الحكومة الفارسيّة، لدفع سلطان مسقط نحو اتخاذ إجراء تمّ بموجبه إصدار تصريح في يناير/ كانون الثاني من العام 1898 لمنع تصدير الأسلحة من مسقط إلى الموانئ الفارسية والهندية. منح هذا التصريح السفن البريطانية حقّ تفتيش أية مراكب في مياه مسقط الإقليميّة، إذا كانت ترفع علم مسقط أو بريطانيا أو فارس، ومصادرة ما يُعثر عليه فوق ظهرها من أسلحة موجّهة إلى تلك الموانئ.

أمّا لماذا تمَّ التركيز على ميناء مسقط تحديدًا دون غيره! فلأنّه كان مركز هذه التجارة، لتمتّعه دون غيره من موانئ مشيخات الخليج وإماراته ودوله باستقلال معترف به دوليًا بشكل مبكر، وإن كان شكليًا، وهذا ما أتاح له عقد عدة اتفاقيات دولية مكّنته من العمل في تجارة الأسلحة، حتى أضحت من أهم أنواع التجارة في ميناء مسقط وبقيّة الموانئ العُمانية.

وكان عدد من الأفراد والتجار والمؤسّسات المستقرة في مسقط من رعايا بريطانيا ودول أخرى، يتولون هذه التّجارة، بطلب أغلب شحنات الأسلحة من مصانع أوروبا مباشرة. وقد بلغت شحنات الأسلحة التي وصلت من زنجبار إلى مسقط مثلًا بين العام 1891 والعام 1897، ما لا يقلّ عن 11,500 قطعة سلاح مختلفة الأحجام، منها حوالى 4,300 بندقية و600 ألف طلقة في العام 1895 وحده. وكان يعاد تصدير أكثر من نصف تلك الكميّة من مسقط إلى الكويت والبحرين وموانئ خليجية أخرى. كما أنّ جزءًا كبيرًا من تلك الأسلحة نقلته السفن البخارية التابعة لسلطان زنجبار، وتولّى تجّار مسقط، ممن ذكرناهم آنفًا، عملية الاستيراد وإعادة التصدير من أوروبا عبر زنجبار وإلى مسقط.

وعندما نجحت السلطات البريطانية مع السلطان فيصل بن تركي في عُمان في مثل هذا العمل، تبع ذلك المسارعة إلى ضمّ جزر البحرين وحكامها إلى مثل هذه الإجراءات، ودعم المقيم البريطاني في الخليج بصلاحيات التدخل في منع مرور الأسلحة أو تصديرها من البحرين.

حينذاك، قام العقيد (أم. جيه. ميد)، المقيم السياسي في الخليج، في بوشهر، بزيارة سريعة إلى البحرين على متن سفينة البحرية الهندية الملكية لورانس (Lawrence)، بتاريخ 6 شباط/ فبراير 1898. خلال تلك الزيارة، قابل الشيخ عيسى بن علي، منتهزًا الفرصة لإبلاغه برغبة حكومة الهند في منع تجارة الأسلحة من البحرين وإليها. كما قام

بدفع الشيخ عيسى إلى توقيع اتفاق مشابه للتّصريح الّذي صدر سابقًا عن سلطان عُمان. وجاء التصريح الخاصّ بالبحرين بحسب الوثيقة التالية:

«فليكن معلومًا لدى رعايانا الَّذين يرون هذا الإعلان، أنه حين عبَّرت كلٌّ من الحكومة البريطانية والفارسية لنا عن رغبتهما في منع دخول الأسلحة والذخيرة إلى الهند وفارس، وأشارتا إلى أنّ هناك سببًا يدفعهما إلى الاعتقاد بأنَّ الكثير من الأسلحة والذخيرة يتمّ تصديرها من البحرين إلى البلدين المذكورين سابقًا، عزمنا على الانضمام إليهما ومساعدتهما، على قدر ما يسمح به نفوذنا، لقمع تجارة الأسلحة والذخيرة بين البحرين والهند وفارس.

وبالتالي، نحن نحذّر رعايانا من أنّ الأسلحة والذخيرة كافة، المرسلة إلى هاتين المنطقتين، سيتم مصادرتها، وسيُعاقب كلّ من يشارك في هذه التجارة، إذ إنَّ إدخال الأسلحة والذخيرة إلى الهند وفارس والبحرين منعته حكومتا تلكما الدولتين. وبالتالي، فإنّه عمل غير قانونيّ. ولن يؤمِّن علم البحرين في المستقبل أيّ حماية للسفن التي تحمل هذه الأسلحة والذخيرة من أراضينا إلى الهند وفارس ومسقط.

وليكن معلومًا أيضًا لدى من يرون هذا التصريح، أننا سمحنا للسفن الحربية البريطانية والفارسية بتفتيش السفن التي تحمل أعلامهم وأعلامنا في مياهنا الإقليمية، ومصادرة الأسلحة والذخيرة كلها (الأسلحة الحربية)، الموجّهة إلى موانئ الهند وفارس ومسقط، حتى وإن كانت من ممتلكات رعايا بريطانيا، أو فارس، أو مسقط، أو البحرين. وقد سمحنا أيضًا لتلك السفن الحربية بتفتيش سفن البحرين في المياه الهندية والفارسية، التي يشتبه في أنها تحوي أسلحة وذخيرة موجّهة إلى موانئ الهند وفارس ومصادرتها».

ويبدو أنّ كلّ ما قامت به بريطانيا عبر الاتفاقية الفارسية في العام 1897، واتفاقية مسقط في العام 1898، واتفاقية البحرين في العام 1898، والقيود التي تم فرضها على التجار البريطانيين في مسقط، والأنظمة الصادرة في العام 1898، واتفاقية الكويت مع الشيخ مبارك الصباح في العام 1900، ثم الاتفاقية مع زعماء الساحل المتصالح (الإمارات حاليًا) في العام 1902، وإخطارات مسقط في العام 1903، واتفاقية الأسلحة

في «الكاروان» في العام 1906، وكلّ سلطات التفتيش والاعتقال الممنوحة للسفن الملكية البريطانية، وأعمال مصادرة الأسلحة والذخيرة التي قامت بها السفن البريطانية الحربية بين نوفمبر 1909 - مايو/ أيار 1910، لم يكن هدف بريطانيا منها محاولة القضاء على تجارة السلاح في الخليج بشكل تام من واقع الحرص على سلامة المواطنين بالطبع، أو الخوف عليهم من هذه الأسلحة الفتاكة، بل تداخلت هنا مصالح بريطانيا السياسية مع الخوف من استغلال الدول المنافسة لها لهذه التجارة، بهدف الولوج إلى الخليج ومنافستها سياسيًا وعسكريًا عليه، وخصوصًا فرنسا وألمانيا. والدليل أنَّ الوكيل السياسي البريطاني في مسقط كتب في يناير/ كانون الثاني من العام 1904 للمقيم البريطاني في الخليج، عن إمكانية قيام الحكومة البريطانية بدعم تجار السلاح البريطانيين في مسقط، لتمكينهم من الوقوف في وجه منافسيهم من التجار الأجانب. وفي رأيه، إنَّ هذا الخيار في حلّ المشكلة المتفاقمة حينها، هو الأنسب، لأنه سوف يتيح للبريطانيين التحكّم بتلك التجارة، كما سيؤدي إلى إبعاد بعض التجار الأجانب «المشاكسين»، كما وصف الفرنسيين، من دون الحاجة إلى استخدام القسر والإكراه من ناحية أخرى.

وعندما لم تتوقّف هذه التجارة كليًا حتى العام 1911، صارحت السلطات البريطانية السلطان فيصل بن تركي في مسقط، بأنَّ تهريب السلاح من هذا الميناء عبر خليج عُمان إلى داخل الخليج العربي، يمثل تهديدًا كبيرًا لمصالح بريطانيا الحيوية. وهنا بيت القصيد في كلّ تلك الإجراءات البريطانية في محاربة تجارة السلاح في الخليج، حتى لا يقع في أيدي جهات معارضة للسيطرة البريطانية على المنطقة، سواء كانت قوى محلية أو قوى أجنبية خارجية.

المراجع:

1. انظر:

The Arms Traffic in the Persian Gulf – IOR/L/PS/18/B1750003/.

2. لوريمر، ج.دج.، دليل الخليج، الدوحة، د.ت.، ج 6، ص 3582.

3. انظر:

Records of Bahrain, Primary Documents 18201960-, (London, 1993), Vol. 3, Bahrain in 19 August 1897.

4. السعدون، خالد، بريطانيا وتجارة السلاح في الخليج العربي (1898 - 1914)، الشارقة، 2008، ص 13.

5. انظر:

IOR/L/PS/10112/, no. 58, political Agent, Maskat, dated 161910-1-.

6. السعدون، خالد، بريطانيا وتجارة السلاح في الخليج العربي (1898 - 1914)، ص 12.

7. لوريمر، ج. ج.، دليل الخليج، ج 6، ص 3585.

8. انظر:

Records of Bahrain, Primary Documents 18201960-, (London, 1993), Vol. 3, no.39, Bushier, p. 49.

9. انظر:

IOR/L/P&S/10112/, No. 588, Political Agent, Maskat, dated 06.12.1904.

د. محمّد السّلمان: باحث بحريني متخصّص في التاريخ، أعدّ أطروحة دكتوراه في جامعة هال البريطانية حول المظاهر السياسية والاقتصادية للحكم البرتغالي في الخليج. صدرت له مجموعة من الكتب التاريخية والترجمات.

للتواصل عبر الإيميل: adoommoon@gmail.com

ذاكرة الصورة

من يملك ذاكرة الأرض؟

أثير السادة

في المدوّنات التاريخيّة، يكتب المؤرخون تاريخهم وتاريخ المؤسَّسات التي ينتمون إليها، ويمارسون تسوية الأحداث وتدويرها لتصبح صورة واحدة على مقاس تصوراتهم ومواقفهم، فالتاريخ الذي تعرضه الكتب، ليس مادةً خامًا بالضرورة، بل هو حزمة تفسيرات وإضافات، يقدّم من خلالها المؤرخ ما يشغله ويثيره، ويعكس فيها ما يراه ويؤمن به.

تستطيع المدوّنات التاريخيّة أن تهبنا النظر إلى حقبة ما، لكنها، في النتيجة، نظرات صغيرة، على غرار الناظر من ثقوب الخيمة، ضيّق المنهج، وضيّق الزاوية، وضيّق الرؤية الإيديولوجيّة التي تزيح الكثير عن مشهد الحقيقة، وهو ما يجعل من الكتابة التاريخية مختبرًا للأفكار أكثر منه للحقائق، هو تاريخ النخبة إن شئنا التمييز بينه وبين تاريخ الناس العاديين، وهذا الأخير غالبًا ما يندرج ضمن التاريخ غير المكتوب، والمهمل، والمنسي، الذي يبقى غالبًا تاريخًا شفهيًا يتداوله الناس، باعتباره روايةً بديلةً أو سيرةً أخرى للمجتمع والناس.

الخروج من سطوة التواريخ المهيمنة والبحث عن الموضوعات المنسيّة، كانا المحرّض للذهاب باتجاه توثيق التاريخ الشّفهيّ واستدماجه ضمن المدوّنات التاريخية، فالذاكرة الشفهية هي ذاكرة حيّة بطبيعتها، لأنها تتّصل برصد نبض الناس، بالانفتاح على زوايا ذكرياتهم، وسردها بنحو شفيف، ما يهبها طراوةً وحياةً متجددةً، فالماضي يصبح حاضرًا في لحظة البوح، وتصبح الحقب والأزمان متَّصلة بعضها ببعض.

هذه المرويات التي تتناقلها العوائل والجماعات جيلًا بعد جيل، وهذا الخزين من الخبرات الإنسانية التي يحفل بها كل مجتمع، هما مادة الذاكرة الشفهية، فهي كمشروع تتقصَّد توثيق التاريخ، من خلال الاتكاء على ذاكرة الأفراد، عبر إدراكاتهم وطرق تفاعلهم مع الحدث التاريخي الذي عاشوه، وربما شاركوا في صناعته.

لم تعد «الذاكرة الشَّفهية» معنيّة فقط برصد اللحظات الغائبة عن التدوين، بل هي معنية أيضًا باستحضار الناس العاديين، وجعلهم ضمن الشهود على تحوّلات الحياة، من أجل منحنا فرصةً لفهم أفضل وتفسير أكثر عمقًا للماضي، وهذا

ما يهب ذاكرة الناس الشّفهية امتياز السّعة والتنوّع والقرب من روح الأحداث، ويجعلها، على حدٍّ وصف البعض، موعدًا مستحقًّا لمزيد من الديمقراطية في كتابة التاريخ، فالناس بهذا النحو شركاء في كتابة تاريخهم، الَّذي هو في مجموعه تاريخ حياة وتاريخ جماعة وتاريخ الأرض.

في المجتمعات المتحوّلة، والمجتمعات التي تشهد تهديدًا لذاكرتها، تصبح الذاكرة الشفهية واحدة من الأدوات التي تتحصَّن بها في مواجهة الوقت ومواجهة الآخرين، ويصبح الرواة الشفهيون سدنة الذاكرة وحراسها الأمناء، فهي، وإن بدت محاولة لموضعة المجتمع على خطٍّ تجربة الفرد، إلا أنَّها نافذة أرحب لاستيعاب المزيد من الأفراد وتحويلهم إلى أبطال للذاكرة.

وبمثل ما سهَّلت تقنية الكاسيت مهمَّة تسجيل هذه الذاكرة وإدراجها ضمن مواد الأرشيف في السبعينيات وما بعدها، ستساهم الكاميرا الرقمية اليوم، بكلِّ إمكاناتها، في التحريض على توثيق هذه الذاكرة ورصدها، حيث تحظى الذاكرة الشفهية بمشاريع مهمَّة في دول مختلفة على مستوى العالم، كمادة خام لدراسة التاريخ والتحولات الاجتماعية، بالإفادة من أصوات المشاركين في هذا التاريخ والحاضرين في متنه. كما يجري استثمارها في الدراسات البحثيّة والعلميّة لأكثر من فرع من فروع العلوم الإنسانية، فسرديات الناس مادّة خصبة لاستكشاف الحياة والتعرف إلى تفاصيلها.

هناك الكثير من الوثائق التي ستضيع، وأخرى ستُتلف، ومثلها سيصبح عرضةً للمصادرة. وفي التجربة الفلسطينية ومحاولات جرف الذاكرة، خير مثال على الممارسات القهرية التي لا تغتصب الأرض وتحاصر الإنسان في هذا البلد المحتلّ فحسب، لكنّها تحاول أيضًا احتلال ذاكرته ومصادرتها، وإعادة كتابة هذه الذاكرة ضمن رؤية المحتلّ، الَّذي يمتلك اليوم جزءًا كبيرًا من أرشيف فلسطين، ويسخِّر الإمكانات لتوثيق كلّ شيء، ورصد كلّ شيء ضمن مؤسَّساته الرسمية التي تحتضن مراكز عدة للأرشيف، بينما تبدو ذاكرة الفلسطيني اليوم، إما بعيدة عن التوثيق وإما خاضعة لمبادرات صغيرة أو متعثّرة.

في ظلِّ غياب المدوّنات التاريخية للتغريبة الفلسطينيّة، تجلَّت الذاكرة الشفهية كمصدر مهمّ لاستعادة ذاكرة النكبة والفصول الأولى للمعاناة التي لا تشبه إلا عمليات التّطهير العرقيّ. من هنا، انطلقت تجربة «فلسطين في الذاكرة»، لجمع شهادات حيّة من الوجوه التي عاصرت النكبة؛ شهادات تحارب بها النسيان والتضليل، وتمنح الباحثين والمهتمين فرصة الاطلاع على فصول الوجع الفلسطيني في القرى التي دمّرتها بربرية المحتل. وبالمثل، انطلقت تجربة البروفيسور مصطفى كبها في «ذاكرة مكان»، واشتغالاته المتعددة على مستوى التاريخ الشفهي لفلسطين، والإصدارات التي تناولت وجوه ثورة 1936م، ودفعت إلى استرداد صدارة القرى في مشهد التاريخ، في مقابل التهميش الذي نالهم من سيرة كتبها أبناء أعيان المدن وأحفادهم، على حدٍّ وصفه.

هناك أيضًا محاولات متعدّدة على مستوى العالم اليوم لاستعادة سرديات المرأة واستدماجها ضمن بنية الكتابة التاريخية التي تَسيَّدَها الرجل، وهي تأتي في سياق المبادرات التي أطلقتها الحركات النسويّة، لتكون بذلك نصوصًا منها وعنها، كاشفة عن حضورها الإنساني وخبراتها في الحياة، أي أنها ممارسة لا تخلو من مقاومة لأشكال الاستبعاد الدائم لها من ساحة التدوي التاريخي، الّذي انتهى بها إلى هامش النصوص، وجعل سيرتها بعيدة عن التداول.

لعلّ حقبة التحوّلات التي مرت سريعًا بالمنطقة كافية للتحريض على تدوين ما أسميه «ذاكرة الأرض»؛ تلك السرديات التي تتصل بالمكان الَّذي كان عنوانًا لألوان ثقافية واجتماعية واقتصادية معيّنة، فأصبح يحمل عناوين جديدة بعد حقبة النّفط الَّتي ردمت الكثير من الصور الماضية وجرفتها، وأحالت المكان صورةً متحوّلةً عنها وعن أفعال التحديث التي أخرجتنا من طور إنسانيّ إلى آخر.

هذه المنطقة بحاجةٍ إلى مبادرات جادة تؤسِّس لأرشيف يدفع حكايا الناس من الهامش إلى المتن، ويحفظ للأجيال القادمة شهادات عن الحياة التي نهضت من هذه الأرض، وعن الأحلام التي تُركت وحيدة في مهبِّ التحولات، وعن صورة التحديات والصعوبات في أطراف الواحات المفتوحة على مواسم الحصاد، ومواسم النّهب أيضًا.

إنّ الَّذين كتبوا سطور الحياة في هذه الأرض، لا ينبغي أن يمضوا بِصَمْتِهم دون أن يسردوا للآخرين آثار خطوهم عليها، فالتاريخ يُكتب ناقصًا دائمًا، لأنه لا يخرج من عباءة الناس، ولا ينتمي بالضَّرورة إلى الأرض، فهناك من يكتب ويمحو من سطور هذا التاريخ، ليهبنا مسودّات ناقصة عن سيرتنا، وسيرة الزرقة والخضرة التي تلفّ بنا.

في المجتمعات التي تشهد تهديدًا لذاكرتها، تصبح الذاكرة الشفهية واحدة من الأدوات التي تتحصَّن بها في مواجهة الوقت ومواجهة الآخرين، ويصبح الرواة الشفهيون سدنة الذاكرة وحراسها الأمناء.

المراجع:

1. صالح عبد الجواد، لماذا لا نستطيع كتابة تاريخنا المعاصر من دون استخدام التاريخ الشفوي؟ مجلة الدراسات الفلسطينية - العدد 64، خريف 2005.

2. حوار «وجهًا لوجه مع مصطفى كبها»، انظر:

الجزء الأول:

https://www.youtube.com/watch?v=L1zblldqGRI

الجزء الثاني:

https://www.youtube.com/watch?v=Vnb3nvQ1Qn4

أثير السّادة: كاتب مهتمّ بقضايا الصّورة ويمارس التصوير والكتابة في هذا المجال. صدر له كتاب بعنوان «تحولات الصورة»، وألبوم فوتوغرافي يحمل اسم «تيارم»، يوثق يوميات البيئة الزراعية في القطيف.

للتواصل عبر الإيميل: atheer93@gmail.com

مسارح بيروت
من الذّهب إلى اللّحد

تغريد الزناتي

تميّزت بيروت، على مرّ السنين، بحياة ثقافيَّة نشيطة. من المعارض، إلى المسلسلات التلفزيونيَّة، والأفلام السّينمائيّة، والعروض المسرحيَّة؛ إنتاجات تناسبت مع مختلف الأذواق وشرائح المجتمع، واستطاعت أن تتخطّى حدود المجتمع اللبنانيّ لتصل إلى العالم العربي أجمع.

من منّا لا يذكر فرقة «أبو سليم» الطّبل، الّتي استطاعت أن تستقطب اهتمام المجتمع العربيّ، ليقوم أبو سليم وفهمان ورفاقهم بزيارات عديدة خارج بيروت، محمَّلين بمواهبهم وضحكاتهم، ويجولوا في البلاد العربية «بناءً على رغبة الجماهير»؟!

من منّا لا يذكر «المعلّمة والأستاذ»؛ المسلسل الذي نقل اللهجة اللبنانية إلى العالم العربيّ، واستطاع، بالكوميديا الذكية والكاريزما المحبّبة والحوار السّلس، أن ينقل المجتمع اللبناني إلى المجتمعات المجاورة، من خلال «هضامة» إبراهيم مرعشلي، وأناقة هند أبي اللمع، وصرامة ميشال تابت، وظرافة «الناظرة ظريفة»، وغيره الكثير من الإنتاجات، من مثل «الدني هيك»، «ألو حياتي»، و«العاصفة تهب مرتين»... كلّها ذاع صيتها وانتشرت.

أضاف المسرح اللبناني الكثير من «الأمجاد» إلى الثقافة اللبنانيّة الفنيّة، وكانت له إسهامات ضخمة على هذا الصّعيد، فالحركة المسرحية تركت بصمة في فترة «الزمن الجميل»، وألهبت بريق بيروت تحت الأضواء، ورفعت مكانتها بين عواصم الثقافة والريادة والفن.

تحدّى المسرح عقبات عديدة، كان أوّلها اندلاع الحرب الأهلية التي استمرت 15 سنة، والتي، من دون شك، كان

لها أثر سلبي كبير في الحياة الثقافية، فخلّفت دمارًا كبيرًا لحق بمدينة بيروت، إضافةً إلى تقلّبات الحياة الاقتصادية.ف

والسياسية، وتراجع الاستثمارات، واهتزاز الاستقرار الأمني في المنطقة.. كلّها عقبات أدَّت إلى انحدار خطّ التطور التصاعدي الذي كان سائدًا.

فيما يلي، مسارح بيروتيَّة عتيقة كانت شاهدة على الفترة الذهبيّة للمسرح اللبناني، وعليها ولدت الأمجاد، قبل أن تدخل في سبات عميق. ربما لأنها لم تقوَ على مواجهة عواصف مظلمة مرّت على لبنان، أو مقاومة تغيّرات مجتمعيَّة سائدة.

مسرح البيكاديللي

يقبع مسرح البيكاديللي في الحمرا؛ أكثر شوارع مدينة بيروت ازدحامًا ونشاطًا. هو أوّل المسارح اللبنانية وأكثرها رواجًا وشهرةً حتى يومنا هذا، ولو دام إقفاله مدة سبعة عشر عامًا.

عرفت خشبة البيكاديللي أكثر المسرحيات تميّزًا أداءً وإخراجًا، واحتضنت عروضًا لبنانيّة مميزة، أبرزها مسرحيات السيدة فيروز للأخوين الرحباني، «هالة والملك» (1967)، «يعيش يعيش» (1970)، «صح النوم» (1971)، «ناس من ورق» (1972)، «لولو» (1974)، «ميس الريم» (1975)، «بترا» (1978) «وصيف 840» (1988)، فضلًا عن عروض عربيّة، أهمّها «مدرسة المشاغبين»، و«الواد سيد الشغال»، و«بودي غارد» لعادل إمام. كما قدّمت شريهان فيها عرض «شارع محمد علي»، إضافةً إلى عروض لفنانين كثيرين، من سلوى القطريب وملحم بركات وشوشو إلى داليا، وأيضًا عروض رويال باليه.

هو مسرحٌ قدّم العروض المميزة لحوالى 33 سنة، وجمع اللبنانين على حبّ الثقافة والفن والابتكار خلال الحرب الأهلية اللبنانية، ودفع ببيروت إلى أعلى سلّم الثقافة والحياة، فجذب من العرب والأجانب كلّ من جعل من الموسيقى والمسرح ميزة هويّته الروحيَّة.

عرف المسرح في أواخر التّسعينيات تحديات عديدة شكّلت عقبات أمام استمرار بريقه، فالتغيّرات السياسية والاقتصادية بطّأت دورة عجلته، وكان الحريق الَّذي نشب فيه في صيف العام 2000 ضربة قاضية دمّرت خشبته بشكل كبير، من دون أن تمسّ ببورتريه السيدة فيروز التي زيّنت أحد جدرانه.

لم يكن الحريق مفتعلًا، كما أكّدت العناصر الأمنيَّة، إلا أنَّه افتعل جرحًا عميقًا في قلب الثقافة اللبنانية. الحريق الَّذي استمرَّ ساعات طويلة قبل إخماده كلّيًا، أتى على المسرح بأكمله، ماسحًا اللون الأحمر المخملي الَّذي كان سائدًا فيه، وأسدل الستارة على حقبة ذهبيّة في تاريخ المسرح اللبناني، في خسارةٍ لم يتم تعويضها حتّى اليوم.

المسرح الَّذي شُيّد على أساس المعايير العالميَّة، دُمّرت بناه، لكنَّ صوت فيروز لا يزال يصدح فيه؛ من بين جدرانه العارية إلا من غبار ورماد. حروف اسمه المهترئة عند مدخله شاهدة على زمن جميل بكلّ ما فيه من تفاصيل، وستبقى شاهدةً على زمن ولّى من دون رجعة.

لا يزال مسرح البيكاديللي عنوانًا لكل من يمرّ في شارع الحمرا. يتم احتساب المسافات وتوصيف العناوين بحسب موقعه. من دونه تضيع البوصلة. لا يمكنك أن تمرّ إلى جانبه، إلا وتلتفت إليه. ربما تتخيّل ما كانت عليه الحياة منذ 40 سنة.

يحاول وزير الثقافة اللبنانيّ الحالي، غطاس خوري، زرع الأمل والوعد بإعادة ترميم مسرح البيكاديللي وإحيائه. يحرّك المسرح النوستالجيا في قلب كلّ من عايش فترة الثقافة الذهبية في لبنان، وكلّ من لم يعشها، ولكنَّه يستعيد في ذاكرته مقاطع من مسرحيات حفظها، أو ربّما رأى صورها النادرة بالأسود والأبيض، ولوّنها كما يُحبّ؛ إنَّها نوستالجيا في قلب كلّ من يحبّ فيروز، ويشتاق إلى شوشو، ويحنّ إلى مسرحٍ أقلّ تكلّفًا وأكثر إبداعًا، لأنه يذكّرنا بالزمن الأجمل!

المسرح الوطني أو مسرح شوشو

غيّر شوشو نظرةَ عامّةِ الشّعب إلى المسرح، وجعله في متناول الجميع على امتداد أيام الأسبوع. جعل الناس روادًا دائمين، ينتظرون أداءه البسيط الذكي المضحك، من دون تصنّع وفبركة.

لم يدرس شوشو فنّ المسرح. كلّ ما كان يملكه هو الموهبة الفريدة والخفّة والأداء السَّهل. كوميديّ بالفطرة. ميزته هذه قرّبته إلى الناس، لأنه كان واحدًا منهم، وكانوا يستطيعون رؤيته كلّ يوم لو أرادوا. كان منزله مسرحه. عنوانٌ معروف، يطرقون أبوابه متى شاؤوا، ليستقبلهم يوميًا على الخشبة.

شهد المسرح عروضًا كثيرة، منها مسرحية «اللعب على الحبلين»، «كافيار وعدس» لوجيه رضوان، «جوّه وبرّه» لموليير، و«الدنيا دولاب»، وغيرها الكثير، وصولًا إلى «آخ يا بلدنا»، التي مُنعت من العرض بعد عدّة عروض.

شوشو (حسن علاء الدين)، الفنان ذو الهيئة المميزة بشاربيه الطويلين وقامته الرفيعة، كان منذ صغره يهوى الكوميديا والضحك. سجّل في رصيده حوالى 24 مسرحية، وأسّس مسرحًا يشبهه، فكان على هيئته؛ عفويًا، بسيطًا، نقديًا، كوميديًا، خلّاقًا، متفرّدًا في المضمون والنتاج، لا يشبه غيره. أضاف الكثير من القيمة إلى المسرح اللبناني، تاركًا فيه من الدهشة والضّحك والبراعة ما استمرَّ حتى اليوم!

الغراند تياترو (1930 - 1975)

تأسّس مسرح «غراند تياترو» أو «أوبرا بيروت» في العام 1930 في وسط بيروت. احتضن عروض الأوبرا الأوروبيّة، وتميّز بشكله الكلاسيكيّ، ولكنَّ وجوده لم يطل، فأقفل أبوابه في الخمسينيات، وتحوَّل إلى صالة سينما لعرض الأفلام حتى

ولد المسرح من الشّعب وللشّعب. تطوّر عبر الزّمن، كما كلّ شيء آخر، لكنّه حافظ على ميزة تجعله فريدًا؛ هي العلاقة المباشرة بين الجمهور والمؤدّي.

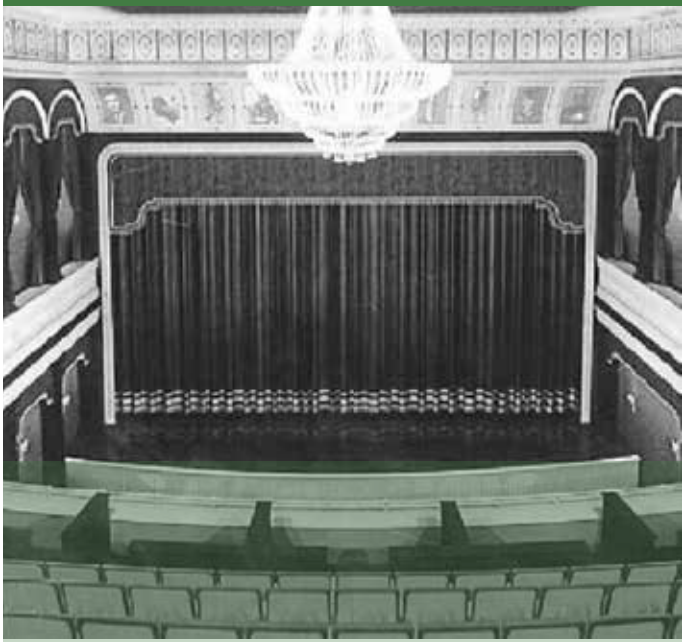

بداية الحرب الأهلية اللبنانيَّة (1975). بعد انتهاء الحرب الأهليّة، هدمت شركة سوليدير البناء، من دون المسّ بصالة المسرح، الّتي لا تزال قائمة في وسط بيروت من دون ترميم.

مسرح أورلي

جرى افتتاح مسرح وسينما «أورلي» في شارع بليس (بيروت) في السبعينيات، وظلّ مستمرًّا حتى التسعينيات.

استقبل المسرح وجوهًا موهوبة. وكان عرض مسرحية «بالنسبة لبكرا شو» لزياد الرحباني، لمدة ثمانية شهور متواصلة، أهم ما مرّ على خشبته خلال هذه السنوات. أقفل المسرح أبوابه، واستمرت السينما في استقبال الرواد قبل إغلاقها نهائيًا في العام 1995.

مسرح بيروت (1964 - 2012)

افتتح سعيد سنّو وزوجته مسرح بيروت في الستينيات من القرن الماضي في منطقة عين المريسة، وكان من المسارح النشيطة والواعدة، ومن بين القلّة التي استمرَّ نشاطها خلال الحرب الأهلية اللبنانية، لكنَّ الخلافات العائلية الشّخصيّة حالت دون استمرار النشاط المسرحيّ فيه، فأقفل أبوابه في العام 2012.

اعتصم الفنانون اللبنانيون أمام وزارة الثقافة في بيروت أواخر العام 2011، احتجاجًا على إقفال المسرح، مطالبين بحماية الفضاءات الثقافية والفنية في لبنان، لكن من دون جدوى!

مسرح بابل

لم يكن في الحسبان أنَّ مسرح بابل (2006) لن يشغل سوى فترة متواضعة من الزمن. لم تساعده الأعمال المسرحيَّة للفنانيْن عايدة صبرا وجواد الأسدي في البقاء ضمن الحياة الثقافية في شارع الحمرا؛ قلب بيروت، فأعلن الانسحاب. انتهى عقده الاستثماري في شهر نيسان/أبريل من العام 2017، مغلقًا الباب على حقبة جديدة في حياة المسرح اللبناني.

وُلِد المسرح شعبيًا من الحاجة؛ الحاجة إلى نقل الواقع والحياة إلى منصّة، وعرضها أمام أكبر قدر ممكن من النّاس، لبثّ حقائق أو نشر وقائع أو سرد نصوص أو إظهار حوادث.

لم تكن هناك تقنيات وشاشات، سواء الصغيرة منها أو الكبيرة. ولد المسرح من الشّعب وللشّعب. تطوّر عبر الزّمن، كما كلّ شيء آخر، لكنّه حافظ على ميزة تجعله فريدًا، هي العلاقة المباشرة بين الجمهور والمؤدّي. علاقة سحرية تربطهما سويًا تحت سقف واحد، على بعد أمتار. يتشاركون الهواء نفسه، ويتكلّمون لغة واحدة، مهما اختلفت الهُويات. إنها لغة الإبداع.

تغريد الزناتي: حائزة على ماجستير في الإدارة والمعلومات، وتعمل في قسم أرشيف جريدة الأخبار اللبنانية منذ العام 2013.

للتواصل عبر الإيميل: taghridzinaty@hotmail.com

قصصٌ من «ذاك المكان»

ريان الرمّال

لا تستطيع أن تذكر كلمة سجن في لبنان إلا وتتبعها فورًا بكلمة «رومية». منسيّة هي السّجون الاثنتا وعشرون الأخرى. «ذاك المكان» نتجنّب الحديث عنه، كتجنّبنا ذكر «ذاك المرض»، لا لشيء، سوى أنّنا نظنّ أنّ تكتّمنا عن «المحرّمات» يبعد ظلّها القاتم عنّا.

يحاول الباحث والمحامي عمر نشّابة أن يُوثّق، للمرّة الأولى، صورًا وتجارب من السّجون اللّبنانيّة الثّلاثة وعشرين. هذه الفكرة بيّنة وواضحة في تقديم الوزير زياد بارود (تولى وزارة الداخليّة والبلديات المولجة إدارة السجون بين الأعوام 2008 و2011): «ربما كانت المرة الأولى التي تتم فيها مقاربة السجون وأوضاعها بهذه الدرجة العالية من العلميَّة والتخصّص والشّمول».

زار المؤلف السّجون اللّبنانيّة بين العام 2010 والعام 2011، وجمع كمًّا من المعلومات حول وضع كلّ سجن على حدة، فكان «ذاك المكان» (دار الكتب) كتابًا مرجعيًا توثيقيًا، يتضمَّن بيانات وأرقامًا وتفاصيل مصدرها المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي، ومواد وتشريعات ومراسيم قانونية من الدستور اللبناني، ووقائع عن أوضاع المساجين وظروفهم، رصدها خلال زيارته الدورية للسجون، مرفقةً بصور توثيقية باللون الأبيض والأسود وأخرى ملونة، التقطها المصور هيثم الموسوي، وهي المرة الأولى التي تُنشر فيها صور من داخل السجون اللبنانية كافة.

«يقال إن أحدًا لن يعرف أمة حقًّا حتى يدخل سجونها»، بهذا القول لنيلسون مانديلا، يفتتح كتابه. لا يأبه نشابة بمحرّماتنا، فيُواجهنا بصور قاسية لجدران مهترئة من الرّطوبة، لغرف لا تدخلها أشعّة الشّمس، لخمسة وعشرين

سجينًا ينامون «رأسًا وذنب» على فرش لا أسرّة، في غرفة ضيّقة. من سجن النّساء، ينقل لنا مشهدين. امرأة امتلأ بطنها، وأخرى تحمل رضيعها بين يديها مع نقص واضح في الممرّضات والمرافقة الطّبيّة. يُرافق كلّ هذه الصّور وصفٌ دقيقٌ بأرقام المديريّة العامّة لقوى الأمن الدّاخليّ عن عدد السّجناء الفعليّ مقارنةً بقدرة السّجن الاستيعابيّة، وعن الظّروف الحياتيّة والصّحيّة للمساجين.

تبلغ مساحة سجن جزّين مثلًا 454م^2. يستوعب الأخير، بحسب المديريّة العامّة، خمسةً وخمسين سجينًا، أمّا عدد نزلائه الفعليّ، فخمسةٌ وأربعون. السّجن عبارة عن غرفة واحدة، لا تحوي رفوفًا تحمل أغراض السّجناء، ولا غرفة يغسل فيها هؤلاء ثيابهم، ما يضطرّهم إلى الاستعانة بعائلاتهم لهذه الغاية. تنبعث من السّجن رائحة كريهة منفرة، لأنّ الشّفّاط معطّل. فلتر المياه أيضًا لا يبدّل. لا خيار أمام السّجناء إذًا إلا شراء مياه الشّرب على حسابهم الشخصي.

يبدو سجن جزين بكلّ ظروفه القاسية، نزلًا أمام سجن رومية، الذي لا يدين بشهرته فقط لقربه من العاصمة و«مركزيته»، بل لكونه يضمّ أكبر عدد من سجناء لبنان، إذ تبلغ مساحته 3470 م^2، مع قدرة استيعابيّة قد تصل إلى حد ألف سجين في حالات الذّروة. يضم السّجن اليوم خلف جدرانه ما يناهز ثلاثة أضعاف قدرته من السجناء، ما يضعه على رأس قائمة السّجون الأكثر ازدحامًا في لبنان. يترتّب على ذلك طبعًا، نقص في عدد الحرّاس، وبالتالي فقدان السّيطرة على المساجين، وإهمال خدماتيّ واضح.

لا يريد نشّابة من خلال الكتاب، أن «ينوح» على حال السجناء، ولكنه يريد أن يُقدّم طروحات واضحة وعمليّة لحلّ بعض مشاكل السّجون اللّبنانيّة. في تقديم وزير الداخلية (الأسبق) قد تبدو الغاية أكثر وضوحًا. يقول بارود: «حسبُ المؤلّف أنّه أضاء، بجرأة وبصورة علميّة، على واقع يرغب كثيرون في التعمية عليه. حسبُه أنّه يَعرف «ذاك المكان» معرفة الخبير المُلّم الموضوعي الرصين، وها هو ينقلنا مِن وإليه، مِن حيث هو راهنًا إلى حيث يجب أن يكون... يومًا».

يطلّ الكتاب سريعًا على مشاكل هذه السّجون التي لا تتطابق والمعايير العالميّة. يُرجّح نشابة أسباب ذلك، فضلًا عن التّقصير الواضح، إلى الازدحام الخانق الذي يُصعب أيّ مساعٍ جدّيّة لرفعها إلى مستوى أفضل، فيقترح بناء سجون جديدة لمعالجة هذه المشكلة جذريًا.

بعد جولته في السّجون اللّبنانيّة، يشير نشابة إلى أنّها بحاجة إلى «عمليّات تأهيل كبرى، بعدما باتت البنى التّحتيّة وكل الشّبكات والتّمديدات الصّحيّة والكهربائيّة والمائيّة متآكلة ومهترئة، ولا تفي بالحاجة المطلوبة». يقوم الكاتب بمقارنة بين المراسيم القانونيّة ومفارقاتها على الأرض، فيظهر أنّ أغلب القوانين لا تُطبّق بالشّكل المرجوّ، كبرامج التّأهيل والتّعليم والعمل، فبينما تحترم القوانين حقّ الفسّجناء في أن يكونوا «أحرارًا» فكريًّا، نراهم يُسجنون «عقليًّا ونفسيًّا»، فالمكتبة ليست مجهّزة كما يجب لتشكّل نواة معرفيّة داخل السّجن، ولا يوجد مشاغل لاستثمار الوقت الضّائع في عمل منتج قد يهذّب أحيانًا سلوكًا عدوانيًّا، وليس ثمة باحة للتّنزّه وممارسة الرّياضة قد تنفّس غضبًا مكبوتًا. الحرمان هو العامل الذي تتشارك به كل السّجون وناسها.

يلحظ نشّابة إلى أيّ مدى تختلف القوانين عن الواقع في السجن، فعلى إدارة السّجن مثلًا انتداب عدد من المدرّسين التّابعين لوزارة التّربية الوطنيّة والفنون الجميلة، لإعطاء دروس داخل السّجن، وتعليم مادّة الموسيقى، بالتّعاون مع المعهد الوطنيّ للموسيقى.

كلّ ذلك بعيد عن أرض الواقع، والصّمت هو الموسيقى الوحيدة التي تُسمع وراء القضبان.

لعلّ أبرز ما يلفت في الكتاب هو صور عدسة المصور هيثم الموسويّ، التي لا تلتقط فقط كليشيهات السّجون والأمور المعتادة فيها (الوشوم على جسد السّجناء، الغرافيتي، الكتابات على الجدران)، بل تُدخلنا بعينها الخاصة إلى زوايا سجن جبّ جنين مثلًا، حيث يحمل سجين في مطلع العشرينيات قفصًا صغيرًا لبلبل. تصدمنا صورة بلبل في قفص داخل زنزانة! في سجن زحلة، سجين صنع نرجيلته من وعاء شفّاف مثقوب. وفي سجن النّساء، سيدتان في الثّلاثينيّات، بأظافر أقدام مطليّة بلون بارز. إحداهنّ تضع مساحيق التجميل لصديقتها.

في الكتاب أيضًا فصل أشبه ما يكون بتسريب لمذكّرات السّجناء الخاصّة، لكنه في الحقيقة «مقتطفات من شهادات شفهية ومكتوبة للبعض منهم في عدد من السجون في مختلف المحافظات، جُمعت بين العام 2007 والعام 2010». فيه مثلًا «قصيدة» لعلي من سجن «جبّ جنين»، يقول فيها:

هدوء مرعب

حشرات وحيوانات صغيرة وكثيرة

تجري من حولي ومن فوقي

وداخل ملابسي

رائحة نتنة كرائحة الموت

حرارة شديدة

«ذاك المكان» ليس كتابًا معتادًا في بيئتنا، فقد جاء مزيجًا من مجموعة صوريّة، ورسائل من المساجين أنفسهم، وكثير من المعلومات الميدانيّة الدّقيقة عن سجون لبنانيّة تُدرس للمرّة الأولى.

هواء لا يتغير

لا بدّ أنهم أخطأوا، فأنا لم أمت بعد

إنّها ليست زنزانة حبس انفراديّ

إنّها قبري

يروي سجين آخر من المبنى «دال» في السّجن المركزيّ في رومية، كيف وجد صرصورًا في الأرزّ. أمّا حسين من سجن النّبطيّة، وهو محكوم بتهمة اتجار مخدرات، فيُهرّب هاتفًا و«كروتة تشريج» (بطاقات لشحن الهواتف)، ليتّصل بحبيبته خارج السّجن.

ينقل نشابة مروياتهم حرفيًا، وبما ورد فيها من أخطاء. ويقول: «لم يتم التأكّد من صحة المعلومات التي تضمنتها هذه الشهادات. ومن المعروف أن السجناء يبالغون أحيانًا في وصف أوضاع السجن وطريقة تعامل الضابطة معهم، لكن هذا لا يلغي حقهم في نقل وجهة نظرهم من الظروف التي يعانون منها».

يرينا نشابة بعدسة المصور الموسويّ وجهين للسّجون اللّبنانيّة، الأوّل باتت معالمه مألوفة؛ جدران متآكلة من الرّطوبة، مرحاض يُجاور أواني الأكل، حمّامات مظلمة ومهترئة. أمّا الوجه الآخر، الباعث على الأمل، ولو قليلًا، فيتمثل في صور لمكتبة متواضعة وسجين يقرأ، صورة خيّاط داخل السّجن، يجلس في مشغل وحوله أنسجته، وآخر يمسك بفخر سفينة خشبيّة يدويّة الصّنع. لا مهرب أمام الكاتب ذي الخلفيّة الحقوقيّة من أن يُضيء على الكثير من القوانين والمراسيم المتعلّقة بالسّجون، ليظهر حجم الهوّة التي تُبعد التّشريعات عن الحقيقة.

لا يكتفي مؤلّف الكتاب بملاحظة سطحيّة لأوضاع السّجون، بل يستخدم ما جمعه من معطيات ليقوم بعدّة توصيات لتحسين حالتهم: تمييز الموقوفين من المحكومين، وضع قانون جديد لتنظيم السّجون، بناء سجن مركزيّ في المحافظات اللّبنانيّة كافة، انتقال مسؤوليّة السّجون من المديريّة العامّة لقوى الأمن الدّاخليّ إلى مؤسّسة عقابيّة متخصّصة، كوزارة العدل.

«ذاك المكان» (دار كتب) ليس كتابًا معتادًا في بيئتنا، فقد جاء مزيجًا من مجموعة صوريّة، ورسائل من المساجين أنفسهم، وكثير من المعلومات الميدانيّة الدّقيقة عن سجون لبنانيّة تُدرس للمرّة الأولى، فضلًا عن القوانين والمراسيم الناظمة للسجون، منذ ما قبل الاستقلال إلى اليوم!

ريان الرمال: طالبة ماجستير في اختصاصَي الألسنية في الجامعة اللبنانية، والأنتروبولوجيا في الجامعة الأميركية في بيروت، وهي مديرة الأنشطة في مركز دار - المجمع الإبداعي.

للتواصل عبر الإيميل: rayanealrammal@gmail.com

كشكول

الذاكرة السياسيَّة في مدوّنات علماء البحرين في القرن الثامن عشر الميلادي

عباس المرشد

لا نبالغ في القول إذا ما قلنا إنَّ فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر، تعتبر فترةً مخيفةً وغامضةً في تاريخ البحرين، فلا معلومات واضحة ومؤكّدة حول أحداثها، ولا تفاصيل متماسكة يمكن أن نجدها لتلك الأحداث، بالرغم من أهميّتها وأثرها البالغ الأهميَّة في تشكيل تاريخ البحرين وهُويتها، فقد شهدت البلاد خلال هذه الفترة أحداثًا جسامًا، لم تتوقَّف عند استبدال أنظمتها السياسية وأنماط السيطرة على دفّة الجزيرة السياسيَّة فقط، بل إنَّ هناك تحوّلات عميقة طالت البنية الاجتماعية والثقافية لمجتمع البحرين، إلا أننا نفتقد إلى معالم تلك التحولات وتفاصيلها، بسبب غياب المعلومات والمدوّنات المؤرشفة للأحداث والمؤرخة للوقائع.

رغم ذلك، فإنَّ التَّدوينات السياسيَّة تكاد تنعدم، إلا قلَّة من الإشارات المبعثرة التي دوَّنها بعض رجال الدين في تلك الفترة، كشهود عيان على تلك المرحلة، لا بقصد التَّدوين المستقلّ للأحداث على طريقة التدوين التاريخي، ولكنَّها كانت أقرب إلى الخواطر والسرد المبطَّن الشارح للأحوال الشَّخصيَّة. أهميَّة تلك الإشارات أنَّها وثَّقت بعض ثغرات الحالة الاجتماعية والسياسية المعاصرة التي يشوبها الغموض والإبهام في مجريات الحياة في القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر الهجري.

كما أنَّ تسلسل الأحداث القاسية والمريرة التي ألمَّت بجزر البحرين خلال القرن الثاني عشر من عدم استقرار سياسيّ واجتماعيّ، جعل أدب العلماء والأدباء والشعراء البحرينيين، في نثرهم وشعرهم، يُصبَغ ببثّ شعور المعاناة والمأساة التي حملتها قلوبهم، ونرى ذلك ظاهرًا في تلك النماذج الظّاهرة مما كتبه بعض هؤلاء المكلومين من العلماء والأدباء، كالشيخ سليمان الماحوزي، والمحدث الصالح عبدالله السماهيجي، والشيخ ياسين البلادي، والشيخ أحمد آل عصفور، الَّتي شهدت القرن الثاني عشر، ويظهر منها الشكوى والتألّم من الأحداث المصاحبة.

هذه النّصوص المبعثرة والضّائعة بين عناوين متباينة، كالفقه والأصول وعلم الرجال والأدب، تُعتبر بالغة الأهمية، لكونها من المصادر النّادرة التي يجب تعقّبها وجمعها وترتيبها، من أجل وضع صورة أولية للذاكرة السياسية في تلك الحقبة، وكيف صار لها أن تكون أساسًا للذاكرة السياسية المعاصرة، بل يمكن القول بكثير من الثّقة، إنَّ البُنى المعاصرة للذاكرة السياسيّة والاجتماعيّة للبحرينيين تأسَّست خلال هذه الفترة، ولا تزال تعمل بفعالية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. معنى ذلك أنّ التراث البحرينيّ استطاع أن يكون حلقة الوصل بين الماضي والحاضر، وأن تكون أدبيات تلك الفترة المرجعية المركزية لتشكيل الهوية المعاصرة والذاكرة المَعيشة حاليًا.

تحاول هذه المقالة جمع النصوص السياسيَّة من مدوّنات علماء البحرين في القرن الثامن عشر، بهدف إعادة رسم المشهد السياسي وتفاصيله المجهولة، للتعرّف إلى كيفية تشكّل الذاكرة السياسية للبحرين، وكيفية انتقالها من مجالها التاريخي المجهول إلى الذاكرة السياسيّة المعاصرة.

لعنة الموارد وعهد خراب البحرين

اتّسمت فترة القرن الثامن عشر السياسيَّة بِسِمَة الاضطراب، أو ما يعرف بالسيولة السياسة، والمقصود بها حالة التغييرات السياسية السريعة وغير المتوقّعة. ونتيجة لتلك «السيولة»، أصبحت الحياة السياسية في القرن الثامن عشر متداخلة في عناصرها، ومتغيِّرة في الفاعلين السياسيين المؤثّرين فيها، وبالغة التعقيد في رسم مشاهدها بصورة منفصلة. يشير الرحالة الشهير كارستين نيبهر (نيبور) إلى هذه السيولة السياسية في حكم هذه الجزيرة، فيقول: «تراوح الكثيرون على حكم البحرين خلال السنين الأخيرة، فقد ملكها البرتغاليون، واستولى عليها منهم شيخ الأحساء، الذي سلَّمها بدوره – إجبارًا – للإيرانيين، الذين ملكوا الجزيرة تحت رئاسة الإمام قولى خان حاكم هرمز، وذلك تحت راية ملك الصفويين. وكان قد تملَّكها أمير من عمان، ولكنّه تنازل عنها للإيرانيين مقابل قدر من المال، وقد حدث ذلك خلال تدخّل الشيخ محمد بن ماجد، الَّذي كان لا يزال حاكمًا في فترة غزو الأفغان لإيران، الذي تلاه على العرش بعد موته ابنه الشيخ أحمد».

إجمالًا، تعرَّضت البحرين منذ مطلع القرن الثامن عشر للعديد من الهزات السياسية العميقة، التي أثَّرت في الذاكرة الجماعية للبحرينيين، وامتدَّ أثرها إلى يومنا هذا. يمكننا هنا فرز أربعة أحداث سياسيَّة رئيسيَّة عصفت بالبحرين، وتحلَّقت حولها التدوينات السياسيَّة لعماء البحرين.

هذه الأحداث هي:

1. هجوم العتوب على البحرين، وتخريب قراها، وقتل بعض سّكّانها في العام 1700م.
2. هجوم العمانيين على البحرين، ومحاولة الاستيلاء عليها منذ العام 1715 وحتى العام 1717.
3. استيلاء الهولة على حكم البحرين بعد سقوط الحكم الصفوي في إيران في العام 1724.
4. عودة الهولة من جديد تحت عباءة حكم الدولة الإفشارية في العام 1736.

من الملاحظ في ما تمَّ جمعه من تدوينات سياسيَّة، أنها تدور حول الحدثين الأولين بدرجة رئيسيَّة، ثم تأتي التدوينات الخاصَّة بفترة حكم الهولة. وأغلب التدوينات السياسيّة الخاصَّة بهذا الحكم، متعلّقة أساسًا بفترة حكم جبارة الهولي. لقد عانى المجتمع المحليّ من حكم جبارة الهولي معاناةً كبيرةً جدًا، ذكرها كلٌّ من الشيخ يوسف العصفور والشيخ ياسين البلادي، كشهود على تلك المرحلة، وتطابقت أوصافهم

تقريبًا بعبارات مليئةٍ بالحزن والغضب الداخلي والعجز عن التعبير. ونحن لا نستطيع تخيّل حجم تلك المعاناة إلا من خلال الرجوع إلى تلك العبارات الحزينة والمؤلمة التي وصفوا بها فترة حكم جبارة الهولي، وكأنّ الأمر الذي بدأ في العام 1130هـ/ 1717م، لم ينتهِ، وظلَّ مستمرًا، وإن تغيَّر الوجه الخارجي بتغير الجهة المستولية على الجزيرة، من العمانيين أو الهولة.

نتيجةً لذلك، استمرَّت محنة المجتمع المحليّ والفقهاء والعلماء طوال حكم جبارة الهولي، الَّذي امتدّ حوالى 15 عامًا، وانتهى بقيام نادر شاه بعد استيلائه على عرش الحكم في إيران، ونقله العاصمة من شيراز إلى أصفهان، وإعادة سيطرته على الأراضي الإيرانية التي احتلَّها الأفغان في عهد طهماسب الثاني. وفور انتهاء نادر شاه من حروبه الداخليَّة، عمد إلى إعادة السيطرة على جزيرة البحرين، وإنهاء حكم جبارة الهولي فيها، وتعيين حاكم جديد يأتمر بقرارات العاصمة الجديدة أصفهان.

بالانتقال إلى المستوى المجتمعيّ، نجد أنَّ هذه الفترة شهدت تحولات عميقة فيما يتَّصل بأنظمة المجتمع الفقيهة والثقافية والسياسية، فخلال هذه المرحلة، تعزّز الجانب الفقهي والسياسي إلى الدرجة التي أصبحت البحرين فيها مستقلّة في إنتاجها الثقافي والديني، كما هي مستقلة بحكم ذاتي يقوم به الفقهاء. لكنه، وبعد تلك الأحداث، تراجع إلى المستويات الدنيا، ولم يعد المجتمع العلمي قادرًا على إنتاج مفاهيمه الدينية الخاصّة، فقلَّت الإنتاجات الفقهية والمدوّنات المعرفيّة، حتى أصبحت غير مشهورة بين أصحابها، وهذا ما جعل طبقة رجال الدين تتراجع في مكانتها السياسية من جهة، وتلجأ إلى ملاذات آمنة خارج البحرين من جهة ثانية.

ليس خافيًا أنَّ سبب التّدهور السّياسيّ والخراب الاجتماعيّ الذي لحق بالبحرين منذ نهاية القرن السابع عشر، كان سببه موارد البحرين الغنية آنذاك، وأنَّ هذه الموارد الطبيعية كانت، ولا تزال، تثير أطماع الغرباء في السيطرة عليها،

ولو على تفتيت جسد الجزيرة السياسيّ وتخريب بنيتها الاجتماعية. فالبحرين، كما يصفها العلامة الفضلي، كانت في القرن الثامن عشر «مزرعًا يحفل بالتمر أكثر من غيره، ومرفأ للسفن التي تقطع الخليج العربي، قالعة من البصرة وعائدة إليها، ومغاصًا يُستخرج منه اللؤلؤ الطبيعي، ومصادًا يُصطاد فيه الأسماك والحيوان البحري ذو النفع، ومتجرًا للمواد الاستهلاكية وغير الاستهلاكية، وبخاصة اللؤلؤ، فقد كانت من أهم أسواقه...».

هذا الثراء وكثرة الخيرات، كان نتيجةً للاستقرار السياسي الَّذي تمتَّعت به البحرين في القرن السابع عشر تحت النّمط الثنائي في الحكم والإدارة؛ نمط يقوم على استقلال المجتمع المحلي في إدارة شؤونه الخاصَّة وقضاياه الداخلية، مقابل الإدارة السياسية التابعة للدولة الصفوية. هذا الاستقلال الذاتي أعطى قياداته الدينية سلطة محلية واسعة، كانت قادرة على مواجهة الحكام والولاة الظلمة أو الجائرين على حقوق الناس، حيث يرد في سيرة أكثر من فقيه ديني، من بينهم العلامة السيد هاشم التوبلاني، أنه كان شديدًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشديدًا على الولاة الَّذين يتمّ تعيينهم سياسيًا، إذا ما انحرفوا عن جادة الصَّواب، وأخذوا في ظلم الناس. في المقابل، ينقل الشيخ سليمان الماحوزي مشهدًا مغايرًا يكون فيه الحاكم السّياسيّ تلميذًا نجيبًا ومطيعًا للحاكم الدينيّ أو شيخ الإسلام، كما في حالة الشيخ محمد بن ماحد بن مسعود الماحوزي، الَّذي عاصره حاكم سياسيّ معيّن من قبل الشاه الصفوي، اسمه محمد بن ماجد أيضًا. وفي كلِّ الأحوال، فقد استُبدل بالاستقرار السّياسيّ اضطراب سياسيّ عميق، لحقه خراب اجتماعيّ أعمق.

إنَّ لعنة الموارد الَّتي نتحدَّث عنها، تشير إلى أنَّ الخيرات الطبيعية، رغم أهميتها ونفعيتها، تحمل معها سمات سلبية تجعل من الاستفادة منها استفادةً محفوفةً بالمخاطر، فالموارد القديمة التي تتمثل في الاقتصاد الزراعي واقتصاد الغوص والصيد، كانت تحمل معها شبح الغزو والحرب، وبالتالي عسكرة المجتمع من جهة، وتعرضه للنهب والخراب من جهة أخرى. وبالمثل، فإنَّ الموارد الجديدة، ممثّلةً في اقتصاد النفط، تحمل معها شبح الاستبداد والاحتكار الفعّال للثروات.

مصادر الأرشفة السّياسيّة

تُعتبر نهاية القرن السابع عشر بداية التدوين السياسي والأرشفة السياسية، ولكنها لم تكن مستقلة، فذاك الأرشيف، مع أهميته واحتوائه معلومات نادرة ومهمّة، لم يُكتب بغرض الأرشفة، ووفقًا لمنهجية تاريخية محددة. وبالرجوع إلى الأرشيف التاريخيّ والسياسيّ، نجد غياب الكتب والمؤلفات المختصة بتدوين التاريخ البحريني من قبل المؤلفين والعلماء المحليين، وتَركُّز اهتمامهم على الإنتاج الفقهي والأدبي، أو تلك الإنتاجات المتصلة بالحقول العامة للثقافة الإسلامية.

ولعلَّ كتابات الشيخ سليمان البحراني تعتبر الأقدم في احتوائها معلومات سياسية وتاريخية مبعثرة في عددٍ من كتبه وأشعاره. وقد انتقل بعض تلك المعلومات، وزيادة عليها، في إجازة الشيخ عبدالله السماهيجي، إلا أنَّ مجموعة صغيرة من الأوراق كتبها الشيخ ياسين البلادي، دوَّن فيها معاناته فترة الاحتلال العماني للبحرين سنة 1717، تعتبر نواة التّدوين التّاريخيّ السّياسيّ. ثم ظهرت كتابات الشيخ يوسف البحراني في كتابه «لؤلؤة البحرين»،

حيث أورد العديد من الأحداث التاريخية، وبعضها انفرد في ذكرها وأرشفتها، من قبيل هجوم العتوب على البحرين سنة 1700 لأوَّل مرة.

رغم ذلك، فإنّ الباحث التّاريخيّ لا يقف عاجزًا أمام غياب المؤلفات المختصّة والتدوينات المباشرة، إذ إنَّ هناك العديد من المصادر الَّتي يمكنه أن يوظّف الكثير مما جاء فيها لمعرفة الأحداث التاريخيّة. وفيما يخصّ التاريخ البحريني، يمكننا أن نجد التاريخ الخاصّ بالبحرين في:

التراجم والسّير والإجازات العلميّة

يُعتبر هذا الصّنف الأدبيّ من الكتابة مادّة ثريَّة ومهمَّة في رصد المجتمعات والدّول وتتبّعها، ويقوم على جمع المعلومات والآثار لمجموعة من العلماء والشخصيات النافذة والمؤثرة في وقتها. ولكن قد يترك علماء التراجم، الإشارة، من دون قصد منهم، إلى سيرة بعض العلماء غير المعروفين أو الحديث عنهم، لأسباب مختلفة. لذلك، برزت في كتب التراجم الكتابة عن علماء مشهورين أو مميّزين في إنجازاتهم، فأخذوا حظوظهم من التدوين وتوثيق أسمائهم في سجل العلماء البارزين في مختلف مستوياتهم الثقافيّة، وتفاوت إنجازاتهم، وتنوّع شهرتهم، وذيوع صيتهم. أما العلماء الأقلّ شهرة، أو هؤلاء الذين لا دراية لعالم الترجمة بحياتهم، فحظّهم أقلّ.. إما بالإشارة الموجزة غير الوافية، وإما السّكوت الكامل وعدم الذكر.

وتعطي الإجازة فرصة التعرف إلى العصر الَّذي عاشوا فيه، ومكان سماعهم للأحاديث التي يروونها وزمانها، فضلًا عن معرفة الطّبقة التي عاصروها من العلماء، إلى غير ذلك مما يمكن أن يكون مادة تاريخيَّة مهمّة. وفي الواقع، تشكّل الإجازات العلميّة حقلًا لم يُطرق بعد، رغم أنَّ كتب الإجازات

ليس من عادة البحرينيين كتابة الأرشيف السياسيّ، وهم عادة ما يلجأون إلى الشعر في الأرشفة السياسية أو الاجتماعية، لأنه أكثر قبولًا، ويستطيعون من خلاله أن يحفظوا جزءًا من ذاكرتهم السّياسيّة.

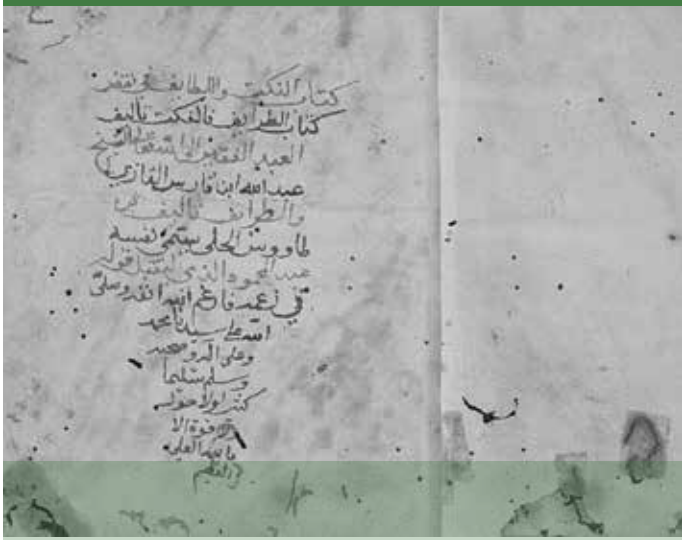

مليئة بالتراجم والمعلومات التاريخية المرتبطة بها، فنجد مثلًا في إجازة الشيخ السماهيجي اهتمامًا بالغًا بعلماء المنطقة عمومًا، والبحرين خصوصًا، فقد ترجم لكلٍّ من تعرَّض إليه، ذاكرًا كتبه ورسائله وبعض ما يتعلَّق به من مواقف. كما تعطينا الإجازات ثروة تاريخية يمكن توظيف معطياتها في التثبت من الحوادث التاريخية، عبر مقارنة الأحداث وتحليلها وربطها بالسياق التاريخي العام، إذ لا تقتصر معلومات الإجازات في العادة على معلومات ذات طبيعة دينية أو ثقافية وأدبية فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى إعطاء الكثير من المعلومات المتعلقة بالأحداث والوقائع السياسية التي جرت أو تجري في وطن الشيخ المجِيز (المانح للإجازة)، وهذا ما نلاحظه على سبيل المثال في «لؤلؤة البحرين»، عندما تحدّث البحراني كشاهد عيان عن الأحداث الدامية الَّتي تعرَّضت لها البحرين في القرن الثامن عشر، عقب هجمات العمانيين اليعاربة.

الشِّعر والأدب

قد لا نخطئ إذا أضفنا مادة الأدب والأشعار التي نظمها أدباء البحرين كمصدر ثريّ وغنيّ بالحيثيات التاريخية، فالفضاء الشّعريّ يحمل في طياته ملامح سياسيَّة أخرى، تتمثَّل في النزعة المتكرّرة لحبِّ الوطن - البحرين في أشعار العديد من الفقهاء والأعلام. وبحسب التتبّع الأولي، فإنَّ لدينا قصائد وأبياتًا في حب الوطن تعود إلى القرن العاشر الهجري، أي قبل 500 سنة تقريبًا، وهي أبيات تعكس الانتماء الوطني لدى هؤلاء الفقهاء، مثل السيد محمد ابن أبي شبانة، والشيخ كمال الدين الرويسي، والشيخ سليمان الماحوزي، الَّذين قاموا بأرشفة ظروفهم القاسية وكتبوا عنها، ومثلها تجربة السيد عدنان سيد شبر المشعل، الذي كتب قصيدة لا تزال مخطوطة، سرد فيها تجربته مع نظام الحكم. وفي المحصلة، يمكننا القول إنَّه ليس من عادة البحرينيين كتابة الأرشيف السياسيّ، وإنَّهم عادة ما يلجأون إلى الشعر في الأرشفة السياسية أو الاجتماعية، لأنه أكثر قبولًا، ويستطيعون من خلاله أن يحفظوا جزءًا من ذاكرتهم السّياسيّة.

مقدّمات الكتب

تُعتبر هذه المقدّمات أو الخاتمات مفتاحًا مهمًا وبوابةً للكشف عن تفاصيل دقيقة جدًا لا نجدها في أيّ مصادر أخرى، فمن شأن تلك المقدّمات أن تشرح للقارئ أهداف كتابة المؤلفات وأغراضها وأسبابها، ثم لا تلبث أن تصف الأوضاع الَّتي كتب فيها ذلك الكتاب، من حيث طبيعتها السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

وفي الواقع، فقد حفلت مقدّمات الكثير من المؤلّفات التي كتبها علماء البحرين بتوصيف بالغ الأهمية لعصرهم، مركّزين تركيزًا واضحًا على الوضع السياسيّ المتدهور. وفي بعض الأحيان، يستعرضون الأوضاع الاقتصاديَّة والثقافيَّة الَّتي عاشوها في بلدان مهجرهم الَّتي هاجروا إليها، هربًا من الانتقام السّياسيّ، وهذا ما نجده فيما يتوفّر لدينا في مقدّمات مخطوطات الشيخ ياسين البلادي والشيخ سليمان الماحوزي وآخرين قبلهم، من مثل بعض مخطوطات الشيخ عبدالله السّماهيجي.

المراجع:

1. التاجر، «عقد اللآل في تاريخ أوال»، ويقول: «استمرّ حكم الشيخ جبارة (بدأ بعد انتهاء العهد الصفوي الإيراني الذي سقط مع غزو أفغانستان لإيران في العام 1722) حتى العام 1373، (أي بعد سنة من وصول نادر شاه إلى الحكم في إيران)». وذكر التاجر أنَّ نادر شاه (مؤسس حكم العائلة الإفشارية في إيران)، «أرسل عامله ميرزا تقي خان واليًا على شيراز، وأمره بانتزاع جزيرة البحرين. وكان الشيخ جبارة غائبًا عنها، وهو يومئذ في مكة المشرفة. أما نائبه في البحرين، فحين رأى نزول تقي خان بجيشه، لم يستطع أن يثبت للمقاومة، ففرَّ هاربًا بنفسه، فاستولت عساكر نادر شاه على البحرين».
2. ديوان الشيخ حسن الدمستاني – مقدّمة الدكتور عبدالهادي الفضلي (ص 15، 16).
3. وسام السبع، الإجازة العلمية عند علماء البحرين، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 4378، الثلاثاء 2 سبتمبر/ أيلول 2014م.

عباس المرشد: باحث متخصِّص في شؤون تاريخ الجماعات السياسية. أصدر عدة كتب منها "البحرين في دليل الخليج"، عن موسوعة دليل الخليج وعمان ووسط الجزيرة العربية، التي أعدَّها قوردون لوريمر وظلّت سرّية المحتوى حتى سنة 1970م حين سمحت الحكومة البريطانية بنشرها.

«لئلا تضيع»:
سلام الراسي: ذاكرة النّاس للناس

غنى مونس

كثير من المرويات والخبريات والأمثال والحكايات والأشعار والأزجال يقبع في الشّتات... كيف لا؟ وهو موزع على ألسنة النّاس.. وفي خبايا ذاكرتهم... ينتظر من يكترث لأمره، وينظر في حاله، و«إن طرقته السعادة»، «يغربله» (بالدّارجة اللبنانية)، لينشره ويقدمه للناس في قالب يدمج الحكمة والطرافة و«المنيح والقبيح» في آن معًا.

تضجّ زوايا عالمنا العربي بمثل هذه الأخبار، فنكاد لا نجد مدينة أو قرية أو شارعًا أو بيتًا يخلو منها، وهي تترسخ في الذّاكرة الشّفهية للأفراد، أي أنّها محكومة بالضّياع والفناء إن لم تجد من يحفظها من غبار النسيان والغياب.

في هذا الإطار، حظي لبنان بفرصة استثنائية، استطاع صاحبها أن يلملم فيها هذه الموروثات التي تتناقلها ألسنة النّاس، ليحفظها، ويوثقها في تجربة فريدة من نوعها: إنه سلام الرّاسي «أبو علي»، شيخ الأدب الشّعبي في لبنان.

من هو «أبو علي» سلام الراسي؟

وُلِد «أبو علي» سلام الراسي في 25 كانون الأول/ ديسمبر من العام 1911، في بلدة إبل السقي، جنوب لبنان، أخًا لثلاثة عشر ولدًا. وبكلماته هو، «كانت الشمس تشرق في ذلك الزمان من وراء جبل حرمون، وتغرب خلف مرجعيون، وقريتنا قائمة في وسط الدنيا...».

نشأ سلام الراسي في بيت مفتوح لأب هو رجل علم ودين، يواكيم الراسي، الذي تعلم في مدرسة المرسلين في عبيه، ثم أنشأ مدرسة الفنون في صيدا، وبقي مديرًا لها منذ العام 1880 حتى العام 1896، وهي التي عرفت فيما بعد بالمدرسة الإنجيلية أو شعبيًا «بالأميركان». عاد [يواكيم الراسي] بعدها إلى إبل السقي، حيث توفي في العام 1917، وكانت له مكتبة عامرة موصوفة، وذلك نادر في ذلك الزمن.

تلقّى سلام الراسي علومه الابتدائية في مدرسة الضيعة، التي بقيت مرتبطة به وظلّ هو مرتبطًا بها، ثم انتقل للدراسة الثانوية في مدرسة سليم قربان في مرجعيون التي عاد إليها معلمًا لفترة وجيزة.

بعدها، انتقل إلى بيروت مع والدته في العام 1925 حين اندلعت الثورة السورية، حيث سكن إلى رأس بيروت كما سكنت إليه، والتحق بالجامعة الأمريكية لفترة وجيزة عاد بعدها إلى إبل السقي.

هذه النشأة والبيئة والظروف العامة التي أحاطت بالربع الأول من القرن العشرين، كان لها أثر عميق في طبع الراسي بطابعها، فهو ابن الضيعة والجنوب والمثقف ابن المدينة في حين واحد. وُلِد أيام العثمانيين، وترعرع في ظل الاستعمارين الإنكليزي والفرنسي لفلسطين ولبنان وسوريا، ثم شبّ مع الرعيل الأول من الاستقلاليين والوطنيين المناهضين للاستعمار المنادين بالحرية والخبز والعدالة.

في العام 1956، عيّنه الوزير إميل بستاني موظفًا في مصلحة التعمير بعد الزلزال، وبقي في وظائف الدولة حتى تقاعد في العام 1975.

كتب الراسي الشعر والزجل وهو في مرحلة الشباب، ثم تحول إلى جمع المأثور الشعبي ومجمل أصناف الأدب القروي، وألّف عددًا من القصص والروايات زاد على سبعة عشر كتابًا، سمّي بسببها «شيخ الأدب الشعبي»، ونال عن ذلك عددًا من الأوسمة والتكريمات التي تليق به وبمقامه.

نشر أول كتبه «لئلا تضيع» سنة 1971 حين كان عمره 60 عامًا، وبقي يكتب وينشر حتى بلغ التسعين. كما شارك في العديد من البرامج التلفزيونية، وبُثَّ برنامجه الشهير «الأدب الشعبي في لبنان» عدة مرات.

توفي في 19 نيسان 2003، عن 92 عامًا، ودُفِن في بيروت.

أدب سلام الراسي

حملت معظم مؤلفات سلام الراسي في عناوينها مأثورات شعبية: «في الزوايا خبايا»، «حكي قرايا وحكي سرايا»، «أحسن أيامك سماع كلامك»...

وغيرها الكثير. ويقول الشّاعر اللبناني عباس بيضون عنها: «في عناوينها، كما في بطونها، افتتان بالكلام والتعبير»، مضيفًا: «هذا اختيار شاعر أكثر منه اختيار مؤرخ ودارس. إنه حفظ لغة واستدراك أكثر تجلياتها شعرية وفصاحة».

ويلفت بيضون إلى أن الراسي «صنع من كلام غيره قلائد لولاه لما بقيت، فهو في المدى المستقبلي ناظمها وصاحبها وكأنها بنت خياله»، مؤكدًا أن الرجل لم يجمع «ثمرات الماضي والحاضر لولا حدس فات معاصريه ممن جعلوا «التقدم» حالًا من أحوال النسيان». في حين يرى وفيق غزيري أنه «أحد أبرز الذين تعاملوا مع عفوية الناس وبساطتهم [...]، ولقد أحيا التراث اللبناني الشّعبي قبل أن يندثر أو تطاله يد النّسيان، ليكون زادًا معرفيًا للأجيال الحاضرة والمقبلة».

الجدير ذكره، أن زوجته، إميلي غطّاس الخوري، كانت رفيقة دربه في رحلته الأدبية، وكانت أول من شجعه على الكتابة والخوض في مشروعه الأدبي، فكان يطلب منها مراجعة كل ما يكتب، ويثق بآرائها، ويعمل بتوصياتها، وكان هاجسها الشّاغل منذ بداياته الأدبية تغيير الانطباع الخاطئ بأنّه محض ناقل وموثق وحكواتي أكثر من كونه أديبًا قصصيًا في المقام الأول، وقد حرصت على إبراز أصالة إبداعه وعطائه الأدبي في كتابها «أدب وعجب في حكايات سلام الراسي».

رحلة سلام الراسي في الأدب الشعبي

بين طرائف أشعار المناسبات ومرويات الأحداث الاجتماعية تجوَّل سلام الراسي، وكان أن وجد أن «اللي بيطاوع مرتو بيضمن آخرتو»، و«الغربة مضيعة النسب»، و«ما لها سياج الدار غير رجالها»، و«جمل في ثقب إبرة»، و«كل سر جاوز الاثنين شاع»، وغير ذلك من مئات الخبريات التي جمعها ودوزنها. في أسفاره الدائمة إلى نبض الشعب اللبناني، لم يمل ولم يكل، بل كان شاغله الأوحد صيانة هذا التراث، ويعود الفضل في ذلك إلى الوزير إميل بستاني.

لقد وجد سلام الراسي نفسه غريبًا في تلك الوظيفة الفنية والهندسية [في مصلحة التّعمير]، وأناطت به المصلحة البحث في هموم النّاس ومشكلاتهم الحياتية واليومية، فكان أن قال له إميل بستاني: «اذهب إلى الضيع، اعمل ما تريد، واجمع التّراث»، وكان أن «بدت الحكايات والمرويات الكثيرة التي تعج بها كتبه أشبه الخزانة التي تحفظ الذاكرة الشّعبية اللّبنانية وتصونها من النّسيان وغدر الزمن».

مؤلفات الراسي: بين الأدب الشعبي والأرشيف

في الحديث عنه، يستذكر مسعود ضاهر تجربة سلام الراسي ببعض من الشغف، فيقول إنه «حين أدركته حرفة الكتابة، وهو في السّتين من عمره، باتت متاعبه من نوع جديد».

أي متاعب تلك؟ إنّها متاعب «طريفة»، غير أنّها تتطلب الكثير من الجهد والتّنقل، فهو يجمع المرويات والأمثال من أفواه الناس، ولا يكتفي بذلك، بل يدققها ويمحّصها، متنقّلا من قرية إلى أخرى، ومذكرًا، كما يقول ضاهر، «بالمؤرخين العرب الذين أمضوا سنوات طويلة من حياتهم بحثًا عن الوثائق الأصلية في مراكز الأرشيف والمكتبات العامة والخاصة، وسجلات المحاكم الشّرعية والأديرة والبلديات وغيرها».

وبذلك، باتت لدى الناس «قناعة تامة بأن مروياته هي «وثائق»، ولديها درجة متقدمة في الأصالة، بحيث لا يمكن الشك بمصادرها، لأنها من صنع النّاس، وهم صانعو تاريخهم بأنفسهم».

ويؤكد ضاهر أن تمايز الراسي في الكتابة برز من خلال إدراكه العميق لضرورة تقصي الحقائق، وهي مهنة المتاعب الكبيرة التي يتعرض لها الباحث المدقق في سعيه الدّؤوب للكشف عن مصادر الثقافة السائدة في لبنان، فثقافة هذا البلد، كما تنشرها وسائل إعلامه الرسمية والطائفية، «هي ثقافة مشوهة ومصطنعة، وقد أفضت إلى كتابة تاريخ مشوه أقل ما يقال فيه إنّه مؤدلج ويتلون بلون الطوائف والمناطق والزعامات المحلية، ومرويات جواسيس الدول

الأجنبية، وتقارير قناصلها. وعلى الرغم من إتقانه الممتاز للغة الإنكليزية، فلم يستند إلا نادرًا إلى وثائق الأرشيف، على اختلاف تلويناته المحلية والأجنبية، ولم يول اهتمامًا يُذكر بالمجلات والأوراق الصّفراء التي تشوه الحقائق التّاريخية في توصيفها لثقافة اللّبنانيين».

لقد توغّل سلام الراسي عميقًا في المرويات الشّعبية، منطلقًا من أحاديث أصدقائه المقربين، وجيران سكنه، وزملائه في الوظيفة، وأهالي قريته، وسكان الجوار، وأهالي منطقة جنوب لبنان، وعموم القرويين في مختلف المناطق اللبنانية، ورفاق العمل السياسي، ومجالس الأدباء والشعراء، ورجال الدين، وغيرهم، فجاءت «محصلة توثيقه الجديد غنية جدًا، ومليئة بالحقائق الدّامغة كما رواها النّاس من خلال تجاربهم الشخصية».

توغّل سلام الراسي عميقًا في المرويات الشّعبية، منطلقًا من أحاديث أصدقائه المقربين وجيران سكنه وأهالي قريته، ودوّن تاريخ لبنان الشّعبي، وكان من رواده في الوطن العربي، فكتب بحق تاريخ النّاس، كل النّاس.

سلام الراسي حافظًا للتاريخ في وجه التّشويه

يقول فولتير، «ساخر فرنسا»، في نقد وجهه إلى تاريخ فرنسا وبقية دول العالم: «في كل ما قرأت، لم أجد إلا تاريخ الملوك، وكبار القادة، وأنا كلي رغبة لمعرفة تاريخ الناس، كل الناس». وهذا ما فعله سلام الراسي، فكان أن دوّن تاريخ لبنان الشّعبي، وكان من رواده في الوطن العربي، فكتب بحق تاريخ النّاس، كل النّاس.

وقد كان له نظريته الخاصة في ذلك، تجلّت في جوابه حين طلبت منه إحدى الصحف المساهمة في باب وجهت فيه سؤالًا إلى الكُتاب: «من يكتب تاريخ الحرب في لبنان؟»، ونشرت رد أحدهم في كل عدد من أعدادها. وفي مقال له حمل عنوان «الاستقلال وحكمة معاز كفرتبنيت»، كان رد سلام الراسي يومذاك: «من يكتب؟ ليس المهم من يكتب التاريخ، المهم كيف نكتب التّاريخ».

نصّب سلام الراسي نفسه حارسًا للأرض ومقاومًا بأحرفه وحبره من أجلها، ففي أحد مقالاته: «الحولة لبنانية اغتصبتها إسرائيل قبل 75 عامًا»، يروي كيف تم شراء قرية المطلة اللبنانية في نهاية القرن التاسع عشر، تنفيذًا لمخطط صهيوني لجعلها «قرية يهودية» (و«مغط» حدود أرض الميعاد إلى ما ورائها)، وكان أن اشتراها البارون اليهودي روتشيلد من مالكها اللبناني جبور بك رزق الله (ابن صيدا). كان زعيم المطلة عهد ذاك الشيخ علي الحجار من وجهاء الدروز المعروفين، استدعاه يومًا قائمقام مرجعيون «رفعت بابان بيك» فلبّى، ثم طفق عائدًا إلى قريته مساء. وصباح اليوم التالي، وصلت فرسه وحدها إلى المطلة، دون فارسها، فهب رجاله يبحثون عنه حتى عثروا عليه مقتولًا ومطروحًا قرب نبع الحمام في سهل مرجعيون، وقيل يومئذ إن قائمقام مرجعيون كان وراء مصرعه الذي سهّل اقتلاع الدروز من القرية، واستقدام عائلات يهودية إليها، ولم يفطن أحد، في ذلك الوقت، أن قرية المطلة ستصبح يومًا «وتد جحا» الصهيونية في لبنان.

يغالط سلام الراسي الرواية اليهودية، فيقول إنّه «مع نهاية الحرب العالمية الأولى، شرع اليهود يخططون لتوسيع رقعة وطنهم المنشود، فألفوا كتبًا ونشروا دراسات زعموا فيها أن حدود أرض الميعاد تمتد شمالًا إلى ما وراء قرية «المطلة» اليهودية من دون أن يشيروا طبعًا إلى أن اليهود لم يطؤوا «المطلة» إلا قبل عشرين سنة من ذلك».

ويروي في بقية المقال «كيف ضاعت الحولة»، واصفًا بحيرتها بـ «حنفية» فلسطين التي لا تنضب، ليقول إنه «كان أمرًا قاصمًا أن أهالي منطقة الحولة (نحو 25 ألف نسمة) نزحوا جميعًا إلى لبنان عند اندلاع أحداث 1948، وتركوا أراضيهم فاستولى عليها اليهود لقمة سائغة، ولاحقًا تمكن أهالي هونين وإبل القمح من استعادة جنسياتهم اللبنانية (لأن سكان منطقة الحولة كانوا لبنانيين، بحسب قيود نفوسهم الموجودة في مرجعيون بموجب إحصاء العام 1921)، أما الباقون، فاحتفظوا بجنسياتهم على أمل العودة إلى أراضيهم التي اغتصبها اليهود عندما تركوها».

هذه الحادثة التي يرويها لنا، «غيض من فيض» من الأخبار التي تزخر بها كتبه، ونشعر، لدى مطالعتنا لها، بأنها مُكَوّن أساسي من مكونات هويتنا اللبنانية، ليكون الحال فعلًا كما عبّر عنه الشّاعر اللبناني هنري زغيب: «لو لم يكن سلام الراسي، لكان ضرورة لنا إيجاده. أما وهو جاء، حاملًا إلينا هذا المكتنز من مخزون الأدب الشعبي، فهو بيننا ليس أديبًا كسواه، ولا كاتبًا كغيره يُضاف إلى بيبليوغرافيانا، بل هو الأدب الشعبي نفسه، تجسد حيًا في أديب».

المراجع:

1 - انظر:

/http://www.salamelrassi.com

2 - «التاريخ مأخوذًا من أفواه متذكريه»، مسعود ضاهر، مجلة نوافذ، أعلام، السبت 5 تموز/ يوليو 2003م.

3 - «أدب شعبي حي اسمه سلام الراسي»، هنري زغيب، نهار الشّباب، الثّلاثاء 29 شباط/ فبراير 2000م.

4 - مصطلح استخدمه الشاعر هنري زغيب في مقاله، منطلقًا من المصطلح الأجنبي «bibliographie».

غنى مونّس: باحثة ومترجمة وأستاذة جامعية من لبنان، تعمل أيضًا في مجال الصّحافة الإلكترونية. تعدّ رسالة ماجستير في الإعلام والتواصل في الجامعة اليسوعيّة في بيروت.

للتواصل عبر الإيميل: ghina.mouaness@gmail.com

شرارة
السياسة مفتاح إنتصاراتنا...
حاسم آل عباس لمركز أوال للوثائق
في سنوات السجن حلمت بـ
سنوات
"الجريش"
الكاتب وسام السبع
ثقافة النبذ والغلبة والقهر السياسي بعد 2011،
أضّلت اهتمامي بالتاريخ البحريني
4
5
أرشيفو
ARCHIVO

متابعات

ندوة "أوال" في اليوم العالمي للأرشيف

إحياء الأرشيف بين التّثمين والجذب

نظَّم مركز أوال للدراسات والتوثيق، بالتعاون مع دار - المجمع الإبداعي، ندوة في بيروت لمناسبة اليوم العالمي للأرشيف، حملت عنوان «إحياء الأرشيف: بين التثمين والجذب».

النّدوة الَّتي حضرها عدد من المختصين والمتابعين، قدَّمتها الأستاذة ريان الرمال، التي تحدثت عن أهمية الأرشيف، ودوره في توثيق الذاكرة الجماعية للشعوب. بعدها، تحدثت الأستاذة آلاء هاشم عن مركز أوال للدراسات والتوثيق، فأشارت إلى أنَّ اليوم الأرشيفي يصبّ في مجال إفادة الجمهور، الَّتي لا بد لنا عند الحديث عنها من التطرق إلى «التثمين»، مضيفة: «لولا التثمين لضاع عمل الأرشيفيين هباءً، ولولا التثمين لعشنا حاضرنا فقط، ولم نعش ماضينا وماضي آبائنا وأجدادنا».

واستعرضت هاشم تجربة مركز أوال في حفظ الأرشيف، التي انطلق فيها منذ حوالى خمسة أعوام، معتمدًا عددًا من الوسائل لحفظ الذاكرة البحرينية بشكل خاص، لينطلق إلى دول الخليج والعالم العربي. وقالت هاشم إنَّ المركز لجأ إلى عدد من الخطوات، كان أبرزها «إطلاق محرك بحث أوال الإلكتروني»، واصفةً إياه بـأنه «عصارة العمل» فيه، لتأسيس ذاكرة بحرينية بعيدة عن التنميط والمثالية.

ولفتت إلى أنَّ المشروع قائم على «توثيق مختلف المستندات، من صحف وبيانات ووثائق، تحفظ التّاريخ الحديث للبحرين، وللعالم العربي بشكل أوسع، مواكبين بذلك الحراكات المختلفة التي شهدتها البحرين والمنطقة في تاريخها الحديث». ومن بين الأحداث التي وثّقها، الانتفاضة البحرينية في العام 2011، وفترة السّلامة الوطنية

التي أعلنتها السّلطات في البحرين في أعقاب الحراك الشعبي المُطالب بالديمقراطية. كما تحدثت عن مجلة «أرشيفو»، وهي نشرة تصدر كل شهرين، وتنطلق من البحرين إلى الخليج إلى العالم العربي وخارجه، وتستقطب الكتّاب من هذه الدول، ليحضروا وثائقهم وذاكرتهم الشّعبية والتاريخية.

ختامًا، تطرّقت هاشم إلى نشرات «اجمع كلّ شيء»، التي صدر منها حتى الآن ثلاثة أعداد تناولت شيئًا من تاريخ صحافة اليسار البحريني، مفصّلةً تجربة جبهة التحرير الوطني البحرينية، والمنشورات التي يستعرضها العدد، ومنها «صوت الطلب»، «الشبيبة»، «صوت العامل»، «الجماهير» و«النضال».

من جانبها، تحدثت الأستاذة تهاني نصار عن تجربة دار - المجمع الإبداعي في توثيق الأفلام والمسلسلات والقصص المصورة، فعرضت نبذة عن الداتا المتوافرة لديها، والتي تزيد على 30 ألف جيغا من الكوميكس، إضافةً إلى المواد الأخرى. واستعرضت في هذا المجال تجربتها الشّخصية في جمع الجرائد، موضحة أنها كانت بابًا أتاح لها الانطلاق للاهتمام بالعالم الأرشيفي وسبر أغواره.

واختُتِمت الندوة بالإجابة على مداخلات الحضور وأسئلتهم.

دار الكتب والوثائق العراقيَّة نظَّمت معرضًا للوثائق والمخطوطات التاريخيّة

لمناسبة يوم التراث الثقافيّ العربيّ، أقامت دار الكتب والوثائق الوطنيّة التابعة لوزارة الثقافة العراقيّة، بالتعاون مع مركز تصوير المخطوطات وفهرستها، ومركز ترميم المخطوطات وصيانتها في العتبة العبّاسية المقدّسة، معرضًا للوثائق النادرة والمخطوطات التاريخيّة، ضمَّ وثائق نادرة ومخطوطات تاريخيّة ومجلّات نادرة ساهم مركز ترميم المخطوطات في صيانتها.

وقد تخلل افتتاح المعرض عدة كلمات، من بينها كلمة للمدير العام لدار الكتب والوثائق الوطنيّة العراقيّة، الدكتور علاء أبو الحسن، تحدّث فيها عن ذاكرة الحضارة العراقيّة، وما لها من وقعٍ مؤثّر في المشهد الثقافيّ العالميّ.

وقال أبو الحسن: «نسعى جاهدين من خلال الثقافة وإرثها الحضاريّ لبناء ذاكرتنا، وإنتاج فكر، واحترام عقولٍ أبدعت وفكّرت وطوّرت وأنتجت. وقد سعينا بكلّ ما نمتلكه لوضع اللّمسات لمشروع الذاكرة العراقيّة وبناء القدرات الذاتيّة لحماية السجلّ الوطنيّ للتراث الثقافيّ العراقيّ والعربيّ واحتوائه والعناية به، كلٌّ حسب اختصاصه».

كذلك، ألقى وكيل الوزارة الحالي فوزي الأتروشي كلمة أكّد فيها ضرورة الاهتمام بالتراث والتسلّح به، لأنّ التراث يمثّل تاريخ الأمّة وحاضرها ومستقبلها.

دار الكتب والوثائق في مصر تنظّم ندوة عن حماية المخطوط

نظَّمت الهيئة العامَّة لدار الكتب والوثائق القومية في مصر ندوة بعنوان «جهود دار الكتب في حماية التراث المخطوط»، بمشاركة عددٍ من الباحثين والأكاديميين.

وقد تخلّل الندوة كلمة لمنسّق برامج معهد المخطوطات العربي، أحمد عبد الباسط، أشار فيها إلى أنَّ الاحتفال بيوم المخطوط العربي ينطلق من الوعي بأهميته، لافتًا إلى أنّ المخطوط العربي محاط بالعديد من المخاطر، في ظل الحروب والنزاعات، ما أدى إلى حرق بعضه، وسرقة بعضه الآخر.

وطالب بضرورة الحفاظ على المخطوط العربي بطريقة أفضل، من خلال فهرسته وتخزينه في بيئة صالحة للتخزين.

وقال الباحث محمد عطية عاشور إنَّ دار الكتب والوثائق استطاعت الحصول على مخطوطات دار الكتب في طنطا، التي ترجع إلى العام 1913، وتحتوي 289 مخطوطًا و479 عنوانًا، وتمّ ضمّها إلى الدار في العام 2008 بعد ترميمها.

وأضاف في محاضرة بعنوان «أكثر من 700 مخطوط أنقذتها دار الكتب»: «حصلنا أيضًا على مخطوطات دار الكتب في الزقازيق، التي ضمَّت 212 مخطوطًا و179 عنوانًا».

ندوة حول الأرشيف الوطنيّ ودوره في حفظ الذاكرة في الأردن

استعرض مدير عام المكتبة الوطنيَّة في الأردن، الباحث محمد يونس العبادي، دور الأرشيف الوطني في حفظ الذاكرة الوطنية، في محاضرة نظمها ملتقى «إربد» الثقافي، بحضور فعاليات ثقافية وأكاديمية واجتماعية.

استهلّ العبادي محاضرته بالقول: «منذ آلاف السنين، لم يكن لدى الَّذين تركوا أوراقهم ويومياتهم علم بأنها سوف تكون مادة المؤرخ... إنّ المجتمعات التي لا تحافظ على الوثيقة تفقد كثيراً من ماضيها الذي هو مستقبل متجدد، فمن خلال مخلفات الآباء والأجداد، تبدأ مهمة المؤرخِ في بعث الماضي لا خلقه».

وأشار العبادي إلى أنَّ المكتبة الوطنية عملت على رفد الذاكرة الوطنية بجمع أكبر عدد ممتاز من الوثائق، لافتًا إلى أنّ عدد الصور الفوتوغرافية المتوافرة فيها يبلغ حوالى ربع مليون صورة فوتوغرافية، منذ العهد العثماني مرورًا بفترة تأسيس إمارة شرقي الأردن والاستقلال حتى الآن، تم الحصول عليها من أشخاص ومؤسَّسات وجامعات، من خلال التواصل معهم للحصول على ما لديهم من وثائق وصور فوتوغرافية، بالتعاون مع وسائل الإعلام المقروءة والمرئية.

وأضاف: «يحتوي القسم أيضًا العديد من الصور الفوتوغرافية غير الموثقة، والعمل جار على توثيقها... حاليًا، تقوم دائرة المكتبة الوطنية بإجراء أرشفة إلكترونية لكل موجودات القسم من وثائق وصور، حيث يتم إدخال بيانات الصور في نظام إدخال متقدم. وبذلك، يمكن للباحثين الاطلاع على مجموعات الصّور بكل سهولة ويسر».

ملتقى دوليّ في تونس حول الذاكرة والأرشيف

نظَّم المعهد العالي للتوثيق في تونس، بالتعاون مع وحدة البحث المكتبة الرقمية والتراث، ملتقًى دوليًا حول «الذاكرة والأرشيف في فترة الانتقال الديمقراطي والحوكمة والنفاذ إلى المعرفة»، بمشاركة فعاليات سويسرية وفرنسية، وعدد من المؤسَّسات المختصّة في مجال الذاكرة والأرشيف.

يهدف الملتقى إلى ضبط آليات الحفاظ على أرشيف وتراث المعرفة المتعلقة بانتهاكات حقوق الإنسان، وضمان استدامتها واستشراف الأطر القانونية من دون عوائق، وجعلها في متناول العموم.

وكشف مدير المعهد العالي للتوثيق خالد الحبشي، عن اهتمام المعهد ووحدة البحث في المكتبة الرقمية والتراث بمسألة الأرشيف في فترة الانتقال الديمقراطي، وتقييم سياسة التصرف في الوثائق، مبينًا أن الوعي بأهمية الوثائق والأرشيف ارتفع بعد الثورة، رغم إتلاف بعض المستندات والوثائق، وسوء تطبيق سياسة التصرف في الأرشيف.

وأشار الحبشي إلى أنّ الأرشيف يعتبر مصدرًا أساسيًا للمعلومات في مجال العدالة الانتقالية وبناء الديمقراطية بشكل عام، وأنَّ المستندات والأدلة المحفوظة هي بمثابة الشاهد على الانتهاكات والمظالم، وهي الحقيقة والدليل القاطع الذي يمكّن من تعويض المتضررين والضحايا، وتحقيق أهداف العدالة الانتقالية، لافتًا إلى أنَّ الملتقى يركز على ثلاثة محاور أساسية، وهي محور الأرشيف والعدالة الانتقالية، ومحور النفاذ إلى الأرشيف والإطار القانوني الذي يمكن الاطلاع عليه، ثم الحوكمة المحلية، لتدارس سبل التعامل السليم مع المخزون الأرشيفي مع تقدم تقنيات رقمنة الوثائق وحفظ المواد الأرشيفية الرقمية، إلكترونية كانت أو سمعية وبصرية، بما يضمن سلامتها وديمومتها، للحفاظ على الذاكرة الوطنية وإعادة كتابة تاريخ تونس المعاصر.

وقال مدير عام الأرشيف الوطني، هادي الجلاب، إنَّ الإدارة التونسية حافظت على أرشيفها، وعمليات التلف كانت قليلة، لافتًا إلى أنَّ جهود مؤسسة الأرشيف الوطني تنصبّ على رقمنة الأرشيف وحفظ الوثائق التاريخية عبر سلّم أولويات انطلق من التاريخ القديم منذ القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر.

قبو لحفظ أرشيف الشّعوب بعد نهاية العالم

داخل منجم فحم سابق، على جزيرة متجمّدة تبعد بضع مئات الأميال عن القطب الشمالي، تُخزَّن البيانات القيّمة للشعوب، لحمايتها والحفاظ عليها. هذا المشهد ليس من فيلم خيال علمي، بل من النروج، وتحديدًا من منطقة سفالبارد، حيث افتتحت شركة «بيكل» المكان الأكثر أمانًا على كوكب الأرض للاحتفاظ بالمعلومات المهمة للبشرية في حال وقوع كارثة عالمية.

يقع هذا «القبو» إلى جانب القبو العالمي للبذور الذي افتتح في العام 2008، وهو قبو متجمّد يحتوي 1.5 مليون بذرة نباتات. والآن، يهدف الأرشيف العالمي للبيانات الرقمية في القطب الشمالي إلى أن يفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى بيانات البشرية: حمايتها من الانقراض.

أُنشئ هذا القبو بالتعاون بين شركتي «بيكل» و«ستور نورسك»، وهي شركة تعدين فحم نروجية تابعة للدولة مقرها في سلفبارد. تحافظ «بيكل» على بيانات رقمية قيمة لفترة طويلة جدًا، من خلال نشر تكنولوجيا ثورية للتخزين الآمن للغاية، والمحافظة على البيانات الرقمية على المدى الطويل. أما شركة «نورسك»، فهي مؤسَّسة تملك الموارد اللازمة لبناء أقبية الجبال وصيانتها.

سيخزن هذا الأرشيف الذي افتتح في 27 آذار/ مارس 2017، الوثائق الرئيسية والكتب وغيرها من الملفات المهمة في فيلم حساس محمي في صناديق وقائية، وهي تقنية تقول «بيكل» إنها اختُبِرَت لتحفظ البيانات لمدة 500 سنة على الأقل، وتعتقد أن بإمكانها الحفاظ عليها حتى ألف سنة. وقد وضعت حكومات البرازيل والمكسيك والنروج أولى النسخ من وثائق تاريخية مختلفة في القبو.

وينقل موقع WIRED أنَّ موقع التخزين يدعم الحفاظ على عمر الأفلام. أولًا، سيُخزَّن الفيلم في منجم مهجور مع درجة حرارة ثابتة تحت الصفر مفيدة للحفاظ على فيلم بيكل، وسيوضع في قبو عمقه 300 متر تحت الأرض، لتجنّب الأضرار الناجمة عن الأسلحة النووية والكوارث الطبيعية.

ثانيًا، تعتبر منطقة سفالبارد، أساسًا، منطقة منزوعة السلاح، وفق معاهدة موقعة من 42 بلدًا تحظر استخدام المعدات العسكرية في الجزيرة. ثالثًا، يُخزَّن الأرشيف كاملًا حاليًا من دون أن يكون متصلًا بالإنترنت، مع إمكانية الوصول إليه فقط عند الحاجة، وذلك منعًا لاختراقه أو قرصنته.